الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرفاني? عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٥٢٦٦٩ [illegible]

العدد ١١١ | الثلاثاء ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٠ — ١١ من فبراير سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الزحف الألماني نحو الجنوب

لمحرر «الثقافة» السياسي

كل ما هنالك في ميادين الحرب والسياسة يدل دلالة واضحة على أننا سوف نشهد في القريب العاجل ، عند اقتراب الربيع ، تطورات وحوادث هامة ؛ ولكن ماذا عسى أن تكون هذه الحوادث والتطورات ؟ هذا ما يشغل الأذهان اليوم في جميع أنحاء العالم . ويكاد يكون من المجمع عليه أن ألمانيا تستعد في الوقت الحاضر للقيام بمحاولة أو محاولات عسكرية خطيرة ؛ وأن هذه المحاولات ، قد تتجه نحو الغرب ، بإقدام ألمانيا على تنفيذ مشروعها القديم لغزو الجزر البريطانية ، أو تتجه نحو الشرق بصورة لم تتضح معالمها بعد .

ونحن نشهد الآن فترة هدوء نسبي ، كالتي شهدناها في العام الماضي قبيل اجتياح ألمانيا للدانمركة والنرويج ؛ ففي الجبهة الغربية يقتصر النضال على الغارات الجوية التي يتبادلها الألمان والإنكليز ، والتي خفت حدتها في الأسابيع الأخيرة بشكل ظاهر . أما في الجبهة الشرقية فإن التطورات الحربية سواء في ألبانيا أو في لوبية أو شرقي أفريقية تسير في مجراها الذي كان متوقعاً منذ بدأ انهيار الجيوش الإيطالية في هذه الميادين في شهري نوفمبر وديسمبر الماضيين .

على أن في تطور الحوادث الأخيرة ، وفي الخطاب

الأخير الذي ألقاه المستشار هتلر ، وفي الأزمة التي تجوزها العلائق الفرنسية الألمانية ما يدل على أن هذا الهدوء النسبي الذي نشهده الآن ، إنما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة ؛ ولقد صرح هتلر في خطابه بأن ألمانيا ستبدأ هذا الربيع حرب الغواصات ؛ وحرب الغواصات قائمة بالفعل ، ولكن هتلر يتوجه في إشارته قبل كل شيء إلى أمريكا ، وإلى موقفها من مساعدة بريطانيا ، وهو يتوعد أمريكا بأنها إذا حاولت التدخل في النزاع الأوربي على هذا النحو ، فإن ألمانيا تقابل هذا التدخل بتعديل أغراضها ، أو بعبارة أخرى تعمل على مقاومته ؛ وحرب الغواصات هي سبيل هتلر إلى مقاومة النجدات الأمريكية .

وإذا كان في هذا التصريح ما يكشف لنا عن الوعد الذي ترمع ألمانيا أن تحاول القيام فيه بضرباتها القوية ، ففي الخطاب أيضاً ما يدل على أن هذه الضربات قد تكون متعددة متنوعة ؛ وهتلر يؤكد لنا أن ألمانيا ستضرب بريطانيا أينما استطاعت ضربها .

* * *

ومن الطبيعي أن يكون غزو الجزر البريطانية في مقدمة المشروعات والخطط التي تعتمد عليها ألمانيا في تحطيم مقاومة بريطانيا . وقد كثر التحدث عن هذا الغزو المحتمل منذ انهيار فرنسا ، ولاح غير مرة في الخريف الماضي أنه وشيك الوقوع ، ولكنه لم يقع حتى اليوم ؛ ومهما كانت الأسباب التي حالت دون وقوعه ، فلا ريب أن تقدم وسائل الدفاع البريطاني ، وثبات بريطانيا في وجه الحملات الجوية الألمانية الكبرى في شهري أغسطس وسبتمبر الماضيين ، كانا في مقدمة هذه الأسباب ؛ ولا حاجة بنا إلى التحدث عن الصعاب الجمة التي تعترض تنفيذ مثل هذا المشروع ، بعد أن كثر الحديث عنها في مختلف المناسبات ؛ بيد أننا نقول فقط إن قوة بريطانيا واستعداداتها لدفع هذا الغزو المحتمل ، قد زادت زيادة عظيمة ، وهي تزداد كل يوم بما تتلقاه من النجدات الأمريكية في السلاح والعتاد والطائرات . وإذا كنا ما زلنا نشك أكبر الشك في احتمال وقوع هذا الغزو في المستقبل ، فإنه ليس مستحيل أن يقدم الألمان بما عرف عنهم من الإقدام والمخاطرة والبراعة في استحداث الخطط العسكرية ، على محاولة ضرب انكلترا وتدميرها بقوات جوية عظيمة ، تصحبها محاولات يائسة لإنزال قوات برية في بريطانيا أو إيرلنده .

على أنه يبدو من المرجح أن يحاول الألمان لقاء بريطانيا في ميدان أو ميادين أخرى يكون النضال فيها أحدق وأقل خطراً ، وأقرب إلى النجاح ؛ وهنالك ما يدل على أن البحر الأبيض المتوسط قد يكون في المستقبل القريب مسرح هذه المرحلة الجديدة من النضال بين ألمانيا وبريطانيا ؛ ولقد أسندت ألمانيا من قبل مهمة مواجهة بريطانيا في هذا الميدان إلى حليفتها إيطاليا ، باعتبار أن البحر الأبيض المتوسط هو « بحرها ومجالها الحيوي » ؛ وحاولت إيطاليا أن تغزو مصر والسودان ثم اليونان ، ولاح لها مدى حين أنها ستظفر بتحقيق أحلامها الضخمة ؛ ولكن الضربات الساحقة التي أصابت جيوشها منذ ديسمبر ، في جميع هذه الميادين قد أيقظتها يقظة مزعجة ؛ ولم تر ألمانيا مناصاً بعد انهيار خطط الفاشستية وتوالي الانتصارات البريطانية ، وتوطيد سيطرة بريطانيا البحرية في البحر الأبيض المتوسط ، من أن توجه خططها إلى هذه الناحية ؛ وقد ظهرت القوات الألمانية الجوية بالفعل في صقلية وقواعد إيطاليا الجنوبية ، وبدأت غاراتها على القوافل البحرية الانكليزية في البحر الأبيض وعلى مالطه ؛ وتدل الأنباء الأخيرة على أن قوات ألمانية تجوز برنر إلى شمال إيطاليا .

ومن الواضح أن الأمر لن يقتصر في ذلك على إنجاد

ألمانيا لحليفتها المهزومة ؛ فنحن نشهد الآن في الواقع استعداد ألمانيا للزحف نحو الجنوب Drang nach Süden . ولم يتضح بعدُ أي اتجاه تنوي أن تتخذه ألمانيا لتحقيق هذا الزحف : هل تسير إلى الجنوب عن طريق البلقان ، أعني من الشرق ، أم تسير إليه عن طريق إيطاليا ، أم بطريق فرنسا وأسبانيا ، أعني من الغرب ؛ ومن المحقق أن لموقف فرنسا الحالي ، والأزمة التي تجوزها العلاقات الفرنسية الألمانية ، صلة وثيقة بهذا الشأن ؛ فقد أجمعت الدوائر المطلعة على أن الألمان يحاولون الضغط على حكومة فيشي لكي تذعن لمطالبهم فيما يسمونه خطة التعاون بين ألمانيا وفرنسا ؛ ولهذا التعاون قصة معروفة لبثت مستمرة تتعثر في تحقيقها في بعض خطاها ، وهي أن الألمان يحملون فرنسا على أن تقف إلى جانب ألمانيا في محاربة انكلترا بصورة من الصور ، كأن تسلم إليها ما بقي من وحدات الأسطول الفرنسي ، أو تنزل إليها عن بعض مواقعها وثغورها الأفريقية لتتخذها مراكز للأعمال الحربية ضد القوات البريطانية في البحر الأبيض المتوسط ؛ وقيل إن حكومة فيشي كادت في وقت ما أن تسلم للألمان بمطالبهم ؛ ولكن تطورات الحرب في الشهرين الأخيرين قضت على هذه الخطة ، وبثت في حكومة فيشي روحاً جديداً ، وشجعتها على مقاومة الضغط الألماني ، ورفض كل مطلب يراد به دفع فرنسا لمحاربة حليفتها السابقة .

والآن يشتد التوتر بين حكومة فيشي وبين الألمان ؛ وهتلر يضع خططه لحرب الربيع ، ولا بد أن تصل القوات الألمانية إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتحصل فيه على قواعد تمكنها من مواجهة القوات البريطانية ؛ فهل يكون اقتحام البلقان من طريق بلغاريا أو يوجوسلافيا سبيل هتلر إلى ذلك ؟ بيد أن هذه الخطة تصطدم بموقف تركيا واستعدادها لخوض غمار الحرب إذا رأت في هذا الزحف ما يهدد سلامتها ؛ وتركيا على اتصال دائم في ذلك بحليفتها بريطانيا العظمى ، والبحث مستمر بين القيادات العسكرية التركية والبريطانية لمواجهة كل احتمال في هذا الميدان ؛ هذا إلى غموض موقف روسيا إزاء الحوادث البلقانية ؛ وعلى ذلك فإن ألمانيا قد تؤثر أن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط من الناحية الغربية ؛ وما دام البحر يحول بين إيطاليا وبين الشواطئ الأفريقية ، فلا بد أن تحصل القوات الألمانية على قواعد برية أمينة في الشواطئ المقابلة ؛ وهذا يمكن تحقيقه بالاستيلاء على تونس وقاعدتها البحرية الشهيرة بنزرت ؛ وإذا استطاع الألمان إنشاء قواعد برية وجوية في تونس ، سهلت مهمتهم إلى حد كبير في مواجهة القوات البريطانية براً وبحراً ، وسهل عليهم أن يعرقلوا أعمال الأسطول البريطاني من الجو . أما شواطئ برقة وطرابلس فلم تعد هدفاً صالحاً لنزول القوات الألمانية بعد أن تقدم الانكليز نحو غرب طرابلس واستولوا على معظم القواعد القريبة من الشواطئ الإفريقية ، وأصبح من المتعذر أن تعبر إليها الأ[illegible]

ولكن هذه الخطة تصطدم من جهة أخرى بموقف حكومة فيشي ومعارضتها ؛ وقد أصبح معروفاً أن الماريشال بيتان وأنصاره يعارضون في كل مطلب ألماني لا علاقة له بشروط الهدنة ، ويأبون التعاون مع ألمانيا في غير الميدان الاقتصادي ؛ وصرح الأميرال دارلان ، وهو من أشد مؤيدي بيتان ، والمسيطر على مصير الأسطول الفرنسي ، بأن فرنسا تحتفظ بأسطولها للدفاع عن إمبراطوريتها ، وبأن هذا الأسطول مصمم على أن يرد كل اعتداء أو تحد . وتأبى فرنسا من جهة أخرى أن تنزل عن أية قاعدة من قواعدها الأفريقية ؛ والظاهر أن الجنرال فيجان ، وهو الذي عهد إليه بالسهر على سلامة الامبراطورية الفرنسية ، يهدد بالانفصال عن حكومة فيشي إذا هي سلمت في أي مطلب يمس هذه السلامة ؛ وحكومة فيشي

من جانبها تلوح للألمان بهذا الوعيد ، وبأن إصرار ألمانيا على مطالبها العسكرية يدفع بالإمبراطورية الفرنسية إلى جانب حركة فرنسا الحرة التي يتزعمها الجنرال دي جول ، وهو أمر تخشى عواقبه ألمانيا ؛ ولا تدخر ألمانيا من جانبها وسعاً في الضغط على حكومة فيشي ، وتلوح في ذلك بمصير المليونين من الأسرى الفرنسيين ، واحتلال الجزء الباقي من فرنسا ، وإقامة حكومة فرنسية جديدة في باريس تذعن لمطالبهم ؛ وقد شرع الألمان بالفعل في تنظيم حزب فرنسي جديد في باريس قوامه نفر من الساسة الموالين لهم ، ومن ورائهم بيير لافال ؛ ولكن حكومة فيشي لا تزال ثابتة في موقفها حتى كتابة هذه السطور .

وسوف نرى ماذا يسفر عنه هذا النضال في القريب العاجل . والظاهر أن الألمان اعتزموا أمرهم ، ولا بد لتنفيذ خططهم من الوصول إلى نتائج سريعة . وقد نشهد في القريب العاجل احتلال الألمان [illegible] حكومة فيشي والأسطول الفرنسي [illegible] وقد نشهد أيضاً محاولة الألمان النزول في تونس بالقوة ، وهي بلا ريب مجازفة خطيرة تصطدم بقوة الأسطول البريطاني ، وقد تصطدم بقوى الإمبراطورية الفرنسية ؛ وقد يحاولون العبور إلى طرابلس ، قبل أن تجهز عليها القوات البريطانية الزاحفة ؛ وهي أيضاً محاولة محفوفة بأعظم الصعاب والمخاطر ؛ هذا إذا لم يؤثر الألمان في النهاية الزحف إلى الجنوب بطريق البلقان ، باعتباره أصلح للزحف السريع ، وأقل تعرضاً للمقاومة والفشل .

ولا شك في أن بريطانيا العظمى من جانبها تحسب حساباً لكل تطور ولكل احتمال مفاجئ ؛ وهي تجد اليوم نفسها في البحر الأبيض المتوسط مسرح المعارك المنتظرة بعد انتصاراتها المتوالية في لوبيه وشرق أفريقية ، وسيطرتها على جزيرة كريت وغيرها من القواعد اليونانية ، في مركز أفضل مما كانت عليه في الخريف الماضي ؛ كذلك لا ريب في أن مضاعفة أمريكا لمعاونتها وامداداتها لبريطانيا وفق قانون الاعارة والتأجير الذي ينتظر أن يقره البرلمان الأمريكي في القريب العاجل ، مما يزيد مركز بريطانيا ثباتاً وتوطداً .

هذه هي طوالع الموقف الحاضر ؛ وعلى أي حال فإن النضال بين ألمانيا وبريطانيا العظمى ، لا بد أن يدخل في دوره الحاسم ، ولا سيما بعد أن سقطت إيطاليا صريعة أطماعها ، ولم يبق لها كبير شأن في هذا النضال . وتدل جميع القرائن على أننا سوف نشهد هذه المرحلة في المستقبل القريب .

(***)

٤ – صناعة التاريخ في مصر

بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة

موضوع هذه السطور مدرسة التاريخ الحالية بمصر، من حيث إنها أداة خطيرة من أدوات التثقيف القومي، ولها — أو يجب أن يكون لها — برنامج ومنهج ورسالة، وعليها أن تؤدي ذلك بيانًا غير مكتوب، بأن تشيع ما تزعم من خطى في سبيل برنامجها، وتذيع منهجها بطرائق الدعاية التعليمية الهادئة، وتعلن رسالتها بالعمل السليم المحمود؛ وبذا يتم التقدم في صناعة التاريخ ما لم تخلفه المرجوة من قواعد وتقاليد مرعية، فضلاً عما سلف بالمقالات السابقة من لوازم المؤرخ، وما يجب له فوق مادته من علوم وأدوات مساعدة على البحث والتأليف المأمون.

إنما يتحتم أولاً تحرير [illegible] التاريخ ليس مدرسة بالمعنى الحرفي [illegible] لا توجد بمصر معهد بتلك التسمية، وليس فيما كان أو سيكون من الهيئات والمجالس والمجامع الحكومية وغير الحكومية ما يصح له أن يحتكر هذا الاسم العريض أو يختص به؛ إنما المقصود بمدرسة التاريخ في الواقع مبلغ ما أنتج الجيل الحاضر في ميدان البحث والاستقصاء، من نشر وترجمة وتأليف، باعتباره فيض ذلك الجيل وكله الدال على مذهبه في صناعة التاريخ؛ وهذا من غير ما تعرض للأعمال الفردية، والإطراء بعض الحديث مدحًا، والمقام أبعد ما يكون من المدح أو نطاقه مقودًا للمستحقين.

أما أن مدرسة التاريخ — بهذا المعنى — أداة للثقافة القومية، فلحسب القارئ أن التاريخ صور الماضي غير متكررة، وأن تلك الصور ليست لمجرد الاستمتاع والمؤانسة الوقتية أو الساخرين فيها، بل هي الوسيلة لتعريف الأمة بأصلها وكيفها وطاقتها وماضيها ووضعها ومكانتها بين الأمم في مختلف الأزمنة؛ والأمة — بالغة ما بلغت من عناصر القوة والمنعة — مفتقرة إلى معرفة ذلك كله حق المعرفة، كي تستنير به في مشكلاتها الطارئة، وليستضيء عليه أبناؤها السبيل إلى القومية الصحيحة المنشودة. ولذا فالمسؤولية الملقاة على عواتق أجيال المدرسة التاريخية جد عظيمة، وإن مع الأمة وماضيها وحاضرها ومستقبلها كل من تناول جزءًا أو انتحى ناحية من تاريخها لنشره أو التأليف فيه، وليعلم أنه يحكم صناعته [illegible] البحث عن الحقيقة المجردة ومشتباه، وليذكر أن واجبه نقد السابقين نقدًا معدلاً، ليكون منه للاحقين [illegible]، وهكذا عن الأجيال المتتابعة [illegible].

وأما البرنامج والمنهج والرسالة، وما إليها من أصول وروح واجبة المراعاة والاتباع في صناعة التاريخ، فلا يتسع لها المقال مهما طال، ولا المكاتبة بها تطاول وكتب، أن يفصح عن تلك المواضيع الشاسعة في أسطر قليلة أو كثيرة. إذ ليست المسألة برنامجًا تحصى أجزاؤه ومواده، أو منهجًا تشرح مناحيه ومقاصده، أو رسالة تبلغ أسرارها وأركانها. ولو كان الأمر بتلك السهولة لما عسر على كاتب نقل المكتوب في هذه الأبواب من مرجع من المراجع الأوربية مثلاً، وتمصيره، بحيث يصبح دستورًا لا محيد عنه للمؤرخين. إنما الممكن في كل من تلك النواحي الشاسعة، هو التنبيه إلى بعض ما يجب أن يكون هنا وهناك من أسس توجيهية عامة: ففي البرنامج مثلاً يجدر بالمدرسة التاريخية أن تستهدف التاريخ القومي لجمهورها الحالي، وهذا بالقيام على نشر ما ظل حتى الآن في طلة

المخطوطات من الكتب النادرة والوثائق الخاصة والعامة، والاهتمام بتوفير أدوات البحث التي تقدمت الإشارة إليها في ذيل المقال السابق، والعمل على إخراج المؤلفات النهائية فيما تمت مراجعه وأبوابه من الأزمنة والعهود والأحداث والأعيان. وليس المقصود بذلك دعوة إلى قومية مسرفة، أو إلى إهمال تواريخ الأمم الأخرى القليلة الصلة وضآلة العلاقة بنا، فإن التواريخ الأجنبية محتاج إليها لإتقان الصناعة في التاريخ القومي من عدة وجوه، وهي أيضاً من مقومات الثقافة العامة ومكملاتها. وإنما الغرض تركيز النشاط السكاني في الميدان الذي من صميمه، سيما وأنه ميدان بكر وعام، وفيه أكثر من متسع لجميع القادرين على مقارفة التاريخ ومسائله مخلصين مؤمنين بضرورة الانصراف إلى تلك الفريضة الأولى للحياة الثقافية في مصر الحديثة[1].

والتاريخ القومي في الحق مشكلة طال عليها الأمد، وكل تأخير أو تسويف في معالجتها يجعلها مشكلة متزحمة يزيد في حجمها وصعوبتها وتفاقمها، وإن التاريخ ظاهرة نامية دائمة النمو، والعمل فيه أمر لا يمكن أن ينتهي؛ وكفى أن معظم ما أنجز فيه حتى الآن قد جاء على أيدي فضلاء المستشرقين، ونحن لا نفتأ نستورد ذلك شاكرين، كما نستورد الأدوية وأطايب الأطعمة وروائع البضائع. وإنه لمن الحري حقاً وصراحة أن يسأل سائل عن أحسن مؤلف منشور أو تأليف محترم في أغلب عصور التاريخ المصري، فلا يجده إلا في غير اللغة العربية، ولا يجد من اهتم به وتخصص فيه وعرف خباياه إلا من غير المصريين؛ وذلك مع العلم بأن المادة الأولية والخامة كثيرها في اللغة العربية، ومن أصل مصري أيضاً. وهذا حال مائل، لا يسر العدو ولا الصديق،

وليس كذلك بين الأمم التي نجرؤ الأذيال في تقليدها أو التشبه بها؛ فأحسن التواريخ الخاصة بإنجلترا مثلاً، وأقرب الموارد والمراجع والمجموعات اللازمة للتاريخ الإنجليزي، مكتوبة بأيدي أبناء الجزر البريطانية؛ ويقال مثل ذلك بصدد آلات التأليف وأدوات البحث في تاريخ الغالبية العظمى من أمم الشرق والغرب.

والاشتغال بالتاريخ القومي في مصر يتطلب منهجاً جديداً ونحواً مخالفاً لما سار عليه المتصدرون في صناعة التاريخ: فلا يجب مثلاً أن يقتصر النشر على القرون المتحمة، كالحوليات ومعاجم السير الشيقة، إذ لدينا عدد من المؤلفات المصرية والتراجم الخاصة بالأفراد من السلاطين والملوك والأعيان، وهذه أهمية تقصر عنها كتب التاريخ الكبرى[1]؛ وكذلك لا ينبغي أن تنصرف مجهودات المشتغلين بالتأليف إلى المواضيع الواسعة فقط، فإن كثيراً من المسائل والمشكلات الفردة في التاريخ المصري محتاجة إلى دراسة تفصيلية خاصة، كما يصبح التقصير في المؤلفات التفصيلية بعد ذلك مأموراً سلبياً. وهناك أيضاً مسألة التقاسيم الشائعة في معظم الكتب المتداولة، كتقسيم الأزمنة إلى سلسلة زمنية من عهود الملوك، مع أن الملوك ليسوا وحدات قائمة بذاتها في تجارب الأمم، بل الأمم نفسها وعلى رأسها ملوكها وحكوماتها وقادة الرأي فيها هي التي تمثل وحدات تاريخها وتقاسيمه، وذلك بما تحدثه — أو يحدث لها — من تغير وتطور طفرة أو بالتدريج. وعلى المؤرخ الناشئ أن يحمل من تلك الحقيقة الجامدة ضابطاً ومساراً لعمله، لتجيء كتابته تصويراً حياً عقلاً لمجموعة الأمة (Body-politic) حكاماً ومحكومين؛ كما عليه أن ينظر إلى تاريخ الأمة من زاويتها الطبيعية المحددة لما وضعها الجغرافي: فلا يكتب في تاريخ الدولة المملوكية الأولى مثلاً، وكأنما هو يطل على القاهرة

(١) تناول الدكتور عزيز سوريال عطية هذا الموضوع في محاضرة عنوانها "تاريخنا القومي"، وهي منشورة في مجلة العلوم، ع ٢، سنة ١٩٤٠.

(١) انظر شرح هذه العيوب في تصدير كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة" مقدمة هـ. (مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠).

من منظرة عالية ببغداد القوطية أو عكا زمن الصليبيين ، ولا يتناول الفتح العثماني لمصر وكأنما هو يشرف على الحوادث من برج بإسطنبول .

ومن أسس هذا النهج الجديد أيضاً أن التاريخ في صميمه دراسة وتحليل للسلوك الانساني في مختلف مدارجه ومناحيه ، وأنه ليس "دراية ورواية" وكفى ، كما اقترح الدكتور أسد رستم بخط عريض بالصفحة الأولى من كتابه "مصطلح التاريخ" ، ليبين أوجه الشبه الظاهرة بين التاريخ والحديث النبوي . فمع أن التاريخ فرع مبارك من شجرة الحديث ، وأصوله من أصوله ، وبعض علومه الموصلة من علومه ، فهو متفق مع الحديث في أنهما دراية فقط ، وتلك بديهية لا تحتاج إلى إعلان ، وشرط كفاية لجميع أنواع المعرفة والعلوم العقلية والنقلية . غير أن التاريخ مخالف للحديث في الركن الثاني من هذا التعريف الحلاف ، لأنه رغم اعتماده على روايات النصوص والمتون كأداة للصياغة والانشاء ، لا يجعل النصوص كل همه فيه ، ولا يقتصر ترديد المتون وترصيعها كما جاءت حسبما وردت في الكتب ، ولا يطلب أن يكون عمل المشتغل به شرح الغامض من هذا وذاك على طريقة المدرسيين (Scholastics) ، كما هو الحال في طبيعة المنهج الخاص بعلم الحديث والنقد فيه . ثم إن التاريخ ، بحكم أنه من العلوم الدنية (ويقال العلوم الكونية ، والدنيوية أيضاً) ينظر إلى النصوص والمتون كروايات متوافقة أو متناقضة في حوادث معينة ، ويستخرج منها ما يبدو راجحاً من حقائق . والمؤرخ هنا في حل من جميع الحدود المفروضة على المشتغل بعلم الحديث ، ولا جناح عليه ولا تثريب إذا لم يذكر من تلك الروايات سطراً ، بل الجناح والتثريب إذا ظن أن عمله مقصور على إيراد تلك الروايات واحدة بعد أخرى دون هضم وتمثيل وصوغ جديد .

وأما الرسالة الواجب على المدرسة التاريخية تبليغها بطريق الانتاج ، سواء بالنشر أو الترجمة أو التأليف ، فهي أن التاريخ المصري أولى من غيره من تواريخ الأمم بالمعرفة والتعلم والدراسة المتواصلة ، وأنه فضلاً عن أولويته المنطقية هذه لا يقل طلاوة وقيمة عالية وأهمية مطلقة عن تاريخ أي من الأمم ذوات التاريخ المجيد . ولا حاجة للتدليل على ذلك القول بالتاريخ الفرعوني العظيم ، فتلك صفحة معروفة مخدومة ، وفضل المصريين الأقدمين على سائر الأمم واضح غير منكور أو مجهول . إنما المجهول المغمور هو التاريخ المصري في العصور الوسطى ، وهذا على الرغم من عظم الدول التي قامت بمصر في أواسط تلك العصور ، وهي الدولة الفاطمية التي جعلت من جنوبي البحر الأبيض المتوسط وشرقيه بحراً مصرياً ، والدولة الأيوبية التي كونت بشرق آسيا ووادي النيل امبراطورية مهيبة الجانب إبان التاسع والثالث من القرى الاسلامية والمسيحية ، والدولة المملوكية التي أنقذت أوربا والشرق الأدنى من خطر المغول [1] ، وسيطرت على التجارة الدولية سيطرة سيادية لما كانت تتمتع به الامبراطورية البيزنطية في القرن الثامن عشر . ثم فقدت مصر مكانتها مستقلة بزوال دولة المماليك على يد الأتراك العثمانيين ، وصارت ولاية تابعة لسلطة يديرونها على مصالحهم ومشيئاتهم . وقد ظلت على تلك الحال الظالمة حتى اكتنفتها مطامع الدول الأوربية أيضاً ، لوقوعها وسط الطريق البري إلى الهند ، وكان ما كان من مشروعات حربية آخرها حملة نابليون ، ثم ظهور مؤسس البيت الملكي الحالي في مصر ، وقيام سلالة هذا البيت على شؤونها حتى عادت دولة مستقلة ذات سيادة مرة أخرى . وهذا كله معروف ، غير أن ما كتب فيه باللغة العربية لا يزال ناقصاً قاصراً في كثير من النواحي ، وعلى مدرسة التاريخ أن تضاعف مجهودها فيه إتماماً لرسالتها ، فإنه حلقة الختام في التاريخ القومي ! .

محمد مصطفى زيادة

---

(١) الاشارة هنا لوقعة عين جالوت ، فانظر شرح هذه الاشارة في مجموعة كمبردج للعصور الوسطى (Camb. Med. Hist. V. PP. 643-644.)

قصة عربية :

زنوبيا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

[كان أذينة أمير تدمر فارساً باسلاً مغرماً بالصيد ، وكانت مدينته عاصمة كبرى للتجارة تجتمع فيها سلع الشرق والغرب ، وتأتي من ورائها ثروة وغنى وسعة . وخرج الأمير يوماً للصيد كعادته مع امرأته زنوبيا الجميلة العاقلة ، سليلة البابليين وحفيدة كليوباترة ملكة مصر ، فأصيب بجراح من أسد ، فعاد جريحاً ، واضطر إلى الاعتكاف بعد أن أظهر لأهل المدينة أنه لم يصب بشيء كبير .

وقضت زنوبيا الليل إلى جوار سريره تمرضه ، وكانت شديدة القلق عليه ، حتى نالها من وراء ذلك تعب شديد ، كان له أثر في زعزعة نفسها واضطراب أعصابها . وجعلت تتحدث مع وصيفتها المسيحية لبنى عن آلامها ومن مخاوفها ، وجعلت لبنى تعيب لها المسيحية ، فأحست في نفسها ميلاً إلى الالتجاء إلى الله ، وتفتح قلبها بعض التفتح إلى الدين الجديد ، إذ حسبت أنها تجد فيه ما يبث الاطمئنان إلى قلبها ويساعدها في تحمل آلامها الواسعة .

وذهبت لبنى في عادتها إلى الكنيسة للصلاة وجعلت تدعو الله ليشفي الأمير ، فلما عادت وجدت أن الأمير قد صحا وعليه دلائل العافية ، وذهبت مع سيدتها زنوبيا لتساعدها في التزين . وجلست زنوبيا في حجرة سرورها تحدثها وهي تمشطها ، فأقبلت إليها تحدث أمير شاب جاء إلى المدينة يخطبها منذ أيام ، وكانت الفتاة قد تعلق قلبها بذلك الشاب مسيحي من عند الأمير . ثم اقترب ذلك الشاب ، وجلست زنوبيا ...]

عم الفرح أرجاء تدمر عندما ذاع نبأ شفاء أذينة مما ألم به من صراع الأسد ، وأصبح ذلك الحادث الجليل ذكراً يتردد في أنحاء البلاد بأنه قاهر السباع ، فكانت حلقات السمر تتجمع أيام الأسواق في رحاب المدينة لتسمع قصائد الشعراء وأغاني القيان في مدحه والإشادة بشجاعته .

وجلس في يوم بعد تمام شفائه في قصره يستقبل وجوه تدمر وكبار جندها ووفود قبائل العرب الذين أتوا إليه يحملون هدايا شيوخها ، ووفود مدائن الشام الذين جاءوا يؤدون لأذينة العظيم تحية الولاء لأمير أغنى بلادهم وأكثرها عمراناً ، وكان من بين الوفود جماعات أتوا من الإسكندرية وآخرون من أنقرة ليظهروا لأمير الشرق عرفان بلاد الأمبراطورية الرومانية بمكانته وفضله .

كان ذلك اليوم أسعد أيام (زنوبيا) ، إذ اجتمع لها السرور بشفاء زوجها البطل الحبيب ، وسرور آخر لا يقل عنه بأن ترى تدمر محط رحال وفود أقطار العالم . وامتلأ قلبها بأملها الأثير أن تصبح تدمر ذات يوم سيدة كل تلك الأقطار قبلة ووطناً .

وخرج أذينة في أصيل ذلك اليوم إلى معبد الشمس سائراً في موكب رائع من الجند والوفود على خيل عربية أصيلة ، وكان أهل المدينة كلهم في عيد شامل أبرزوا فيه كل ما عندهم من زينة وثروة ، وأرخوا لأنفسهم العنان في المرح والغناء والقصف ، واختلط مع أهل المدينة في ذلك العيد العميم جماعات من أهل الصحراء الذين جاءوا بقوافلهم إلى تدمر من أطراف السواحل في الجنوب والشرق والغرب ، فكانت طرق المدينة تضم ألواناً من الوجوه ، فيها من كل سن وجنس ، وألواناً من الملابس والأزياء ، بين شملة الأعرابي ، وملاءة الرومي وقباء الفارسي .

وفي مساء ذلك اليوم مدت الموائد لإطعام الوفود في إيوان القصر واجتمعت عليها أطايب ما في الشرق وما في الغرب من صنوف الطعام بعضها حضري وبعضها بدوي ،

وقدمت فيها من أطباق الفاكهة ما لا عهد به لأهل الصحارى ، ومن صنوف الحلوى والألطاف ما أدهش ألباب القوم من حضر الشرق والغرب . وجلس أذينة بعد انصراف الوفود والضيوف في جماعة قليلة من أصفيائه وأصحابه وحضرت الأميرة ووراءها وصيفاتها تنثار كعهدهن بحرم ، كما كانت عادتها من قبل كلما خلا أذينة إلى أقرب الأصدقاء .

وكانت في تلك الليلة باهرة الحسن ، فإن السرور الذي كان يملأ قلبها قد خلع عليها لألاءً ساحراً ، فكانت عيناها السوداوان الواسعتان تتألقان بنور البشر ، ووجهها الأسمر الخمري يشع سعادة وفتنة . وكانت تلبس ثوباً من الحرير الأحمر الامبراطوري ، وزينت ذراعيها وأصابعها وصدرها ورأسها بحلي من الذهب الثقيل والجواهر الزاهية ، ولكنها مع ذلك كانت رشيقة القد خفيفة الحركة أنيقة المنظر .

وتطلعت إليها العيون حيناً وقد بهرها الحسن الباهر ، ولكنها ما لبثت أن أغضت إجلالاً لتلك [illegible] البطل الجليل . وقام أذينة يستقبلها [illegible] ببساطة وكبرياء . وقال لها في لهجة [illegible] :

— أميرة الشرق تحية طيبة !

فابتسمت ونظرت إليه وأجابته قائلة :

— تحية لسيدي أمير الشرق ، أذينة المعظم .

ثم مالت إليه وقالت بصوت هامس :

— أوشكت أن أقول تحية لامبراطور الشرق .

فتبسم أذينة ونظر نحوها نظرة أودعها ما يحمله نحوها من إكبار لذكائها وغرام بحسنها . ثم جلس وأجلسها إلى جواره ووقفت الوصيفات وراءها يحملن المناديل وقماقم العطور ، وينظرن إليها ينتظرن إشارتها . وكانت أبرعهن حسناً (ليس) ابنة ياسر .

وجلس أذينة مع زنوبيا في صدر البهو الفسيح وقد نصب له تخت عال من خشب الأرز الذي جلب إليه من لبنان ، عليه حلية من الذهب في أركانه وفي ظهره على هيئة تماثيل لإيزيس إلهة الخصب والخير وأبولو إله الشمس والقوة ، وكانت قاعدتاه الخشبيتان على صورة أسدين رأساهما على هيئة رأس رجل متوج بإكليل في صورة الجبهة الملكية المصرية ، وقد وضعت فوق التخت صنوف من الطنافس والوسائد المغطاة بنسيج دقيق من الكتان الناعم ، وعليها نقوش ملونة من أشكال الزهر والحيوان .

ووضعت على جانبي البهو أرائك أقل علواً من أريكة الأمير قد زينت كلها بالنقوش وطليت حليتها بالفضة والذهب والنحاس . ووضعت عليها فرش وثيرة ووسائد محشوة وفراء ناعمة مختارة من الأبيض والأسود والمصبوغ بالأحمر والأصفر . ووضعت عند كل من هذه الأرائك مناضد من الخشب والمعدن مختلفة الرسوم والنقوش .

وكانت المنضدة الملكية قطعة من خير ما أنتجه فن الإسكندرية من الخشب الثقيل المطعم بالذهب والفضة والعاج ، رسمت نقوشها على هيئة سباع وشجر وطير وزهر . وكان الضيوف حول البهو الفسيح ، فكانوا خليطاً عجيباً من الشرق والغرب ، فيهم شيوخ من مضر وجرهم قد أتوا من بلاد البادية والحجاز ، ووجوه من اليمن قد أتوا مع تجارتهم من أقصى الجنوب ، وفرسان من جنود تدمر يلبسون ملابس تشبه زي الروم وخيلهم ، بعضهم من العرب وبعضهم من أهل الشام أو جبال حوران .

وكان بين الحاضرين اثنان من المسيحيين ، أحدهما الزاهد (فليس) في ملابس سوداء خشنة ، والآخر أسقف أنطاكية بولس السميساطي ، وهو رجل ملء الجسم أحمر الوجه أسود اللحية ، يظهر عليه أنه غير غريب عن حاشية الملوك ، فقد كان أميراً تجبى له أموال من المسيحيين على أنه لهم زعيم ، ولكنه كان يعرف مغاني العالم ، ويقبل على لذاته ويعرف كيف يجمع بين عز المال والجاه ، وبين رياسة الدين ومظاهر قداسته . وكان إلى يمين الملكة صاحبها لونجين ، وهو رجل في وسط العمر ، عليه سيماء الوداعة والسلام ، وتنم ملامح وجهه عن صراحة وقوة نفس وشجاعة وذكاء .

ووضعت على المائدة أباريق الخمر والأكواب بعضها من الذهب لشراب الأمير والعظماء، وبعضها من الفضة لمن هم دون ذلك من الأصحاب، وعليها حلى مختلفة ونقوش منوعة. ووضعت إلى جانب الأباريق والكؤوس صحاف من الفضة مليئة بالفاكهة والثمار والأعشاب العطرة والأزهار، وفرشت أرض البهو بأنواع من الطنافس والبسط، وألقيت بينها جلود فهود وأسود ودببة مما صاده أذينة في غزواته للوحوش. وكانت بين المقاعد تماثيل من الرخام الملون والنحاس الأصفر قد وضعت عليها مجامر الند والعود، أو تماثيل شتى للآلهة المعبودة عند ذلك من بلاد مصر إلى بلاد الروم.

وأخذ الملك في الشراب مع أصحابه، وجعل يحدثهم في حماسة وبساطة عن صيده ومخاطراته فيه، وعن معارك العالم الجليلة التي كانت تلك السنين تضطرب بها، وجعل الخدم والعبيد يتنقلون خفافاً ليملأوا الكؤوس ويقربوا الفاكهة.

وتدفق الحديث في غير تكلف ولا تحرج، كما يتدفق بين أبناء الصحارى الذين لا تثقل ألسنتهم الرهبة، وشارك فيه من كان هناك من الأمراء والعلماء الذين كانوا من أنداد الملوك. فكان أذينة وهو بينهم مجاوراً بين محاربين أو صديقاً مع أصدقاء، وجرى الحديث على وقاره ممتعاً أعظم الإمتاع للنفوس. وأقبل الجمع على الشراب، غير أن معلم الملكة وقلبى الراهد كانا يشفقان كأسيهما كأنهما يريدان المشاركة ولا يحبان أن يغلبهما الشراب، وشاركت زنوبيا في الشراب والحديث وبعث بذكائها ورخامة صوتها روحاً من الطرب كان له حياً مثل حميا الشراب.

والتفت الأمير إلى (لونجين) فوجده يذوق الشراب ولا يتجرعه فقال له باسماً:

— مالك أيها الأخ النبيل تحاذر في الشراب كأنك تخاف أن ينفد؟

فنظرت نحوه زنوبيا باسمة وقالت:

— إن صديق يرى له رأياً في الشراب، هو يخشى بلاغته الموقد أن يعتريه النسيان.

فنظر لونجين إلى الأمير باسماً ثم اتجه إلى الأميرة في حياء وقال:

— أعرف أن أباريق مولاى لا تفرغ، وأعرف أن من كان في حضرة مولاتى لا يمد فمه الإلهام.

فضحك أذينة ملء صدره وقال:

— لقد عرفت هؤلاء الفلاسفة لا يعجزهم القول.

ثم شرب ما بقى في كأسه جرعة واحدة والتفت إلى الفيلسوف وقال:

— آه أيها الفيلسوف. إنها تروى الظمأ وتنعش النفس. إنك لو عرفت الهموم لوجدت فيها شفاءها، ولو خضت الحروب لعرفت أنها بلسم لجراحها.

ثم التفت لفتة إلى زنوبيا وقال في تردد موجها الخطاب إلى لونجين:

— ولو عرفت الحب لوجدتها الجرعة التي لا غنى عنها.

فأطرق لونجين واحمر وجهه ولم يجب، ولكن زنوبيا نظرت إلى زوجها نظرة تنم عن شيء من الدهشة، إنه يذكر الحب في حضرة القوم كأنه يلهو بذكره.

وجالت في نفسها خواطر مسرعة تمر مرور الريح الثائرة. فلعل الخمر قد فكت عقال لسانه فأنطقته بما كان يخفى في صدره. أتراه يهازل بذكر الحب؟

ولم يفطن أذينة إلى ما بدا على وجه الملكة من الدهشة، فما ملأ الساقى له الكأس حتى رفعها وشرب منها جرعة طويلة واتجه إلى (بولس) أسقف إنطاكية وقال في شيء من الخفة:

— وما رأيك أنت أيها الأب المقدس. هل يحرمها عليك دينك كما تحرمها الفلسفة على لونجين؟

وكان (بولس) يشارك في الشراب مشاركة الناعمة

في إناقة وتظرف جديرين بندماء الملوك. ولما سمع سؤال الأمير نظر إليه باسماً وقال:

— إن ديني لا يحرمها علي، وإن الاستئناس بمجلس مولاي فوق ما يمكن أن تبعثه الكؤوس.

فتحرك أزينة مرتاحاً وقال:

— مرحى لك أيها الأب القديس!

ثم رفع كأسه وأشار بها نحوه قائلاً:

— إذاً فلتشاركني في جرعة من نخبك.

وشرب ما بقي من كأسه ورفع الأب كأسه فشرب منها جرعة طويلة، وكان في حركته وإشاراته ومظهره أنيقاً ظريفاً على كبر سنه.

وجرى الحديث بعد ذلك في بهجة ومؤانسة لم يكن فيه غضبة ولا عتبة. على أن مجراه كان في أدق المسائل وأجل الحوادث، فاتجه إلى سبيل من الفلسفة و[illegible] فيه [illegible] لوتجين مع الزاهد والأسقف، وجعل كل منهم يذكر مذهبه ويدل على صلاحه وسداد الرأي [illegible] الزاهد والأسقف على معنى الثالوث المقدس [illegible] لله، فكان (فليس) الزاهد إذا تكلم [illegible] بالحماسة ومازجه الغضب إذا وجد قوة الحجة في معارضه، فقال له (بولس) الأسقف كأنه يثيره:

— أترى أن يكون الخالق هو المخلوق؟

فتغيرت ملامح الزاهد وهم بالوقوف ثائراً وأجاب في غضب ظاهر:

— كأني بك أيها الأسقف تنكر ألوهية المسيح؟

فخشع الأسقف وهو يجيب قائلاً:

— المسيح مخلوق من روح القدس. أليس الروح من الله؟

فهم الزاهد بأن يرد وهو ثائر، فتدخل لوتجين في المناقشة وجعل يورد من مذاهب الفلاسفة ما يدل على أن المسيحية متصلة بمذهب صديقه أفلوطين ومذهب معلمه القديم أفلاطون، وقال في هدوء لم يخل من سخرية:

— إن الحقيقة واحدة قديمة؛ ولكنا نفهمها على ما يهيئه لنا عقولنا.

وتدخلت الشكلا في الجدال دخولاً هيناً تتهادى من سورته، وتوقفت بصوتها الرخيم عند ما أحست أن غضبة الزاهد توشك أن تعكر صفاء الحديث، وتلطفت عليها بتكلفها حتى أذهبت حدتها وأبدلت مرارتها. ثم نظرت إلى الأمير فلحظت ما اعتراه من كثرة الشراب، ووجدت أن السكر قد غلبه، فنظرت إلى معلمها كأنها تستعين بحسن رأيه على صرف المجتمعين خوف أن تبدر منه بادرة تؤخذ عليه أو أن يفضي بسر يخشى من ذيوعه؛ ونظر إليها المعلم باطناً مرتبكاً وقد فهم من نظرتها ما أرادت؛ وفيما هما كذلك سمعت جلبة تتعالى من فناء القصر، فأرهف القوم جميعاً آذانهم نحوها إلا أزينة، فقد مال نحو الكأس التي ملأها الوصيف يريد أن يرفعها، ثم أحس أن القوم قد أمسكوا عن الحديث، فنظر نحوهم متسائلاً، وعند ذلك بلغت مسمعه الجلبة، فبدا عليه شيء من القلق وقال متجهاً إلى الشكلا:

— ما هذه الجلبة التي تحدث؟

فقامت الشكلا من مكانها، ونهض الجميع لوقوفها إلا أزينة، فقد بقي حيث كان، يتحرك حركة بطيئة كأنه يهم بالقيام ولا يستطيع، ودخل عند ذلك فارس [illegible]، ثم وقف معتدلاً وقال:

— وصلت الساعة رسالة لمولاي.

ثم انتظر أن يأذن الأمير. فعرف الحاضرون أنه قد أتى بأمر خطير، فاستأذنوا وأخذوا يخرجون بعد التحية حتى لم يبق إلا لوتجين وقد استوقفته الشكلا ليسمع ما أتى به الرسول.

وأتى الفارس برسالته وهي نبأ من أجل حدث من الشرق والغرب معاً. فقد أسر أمبراطور الروم (فاليريان) وحمله الملك المنتصر (سابور) الفارسي، وذهب به في الأغلال يعرضه على جنده حيث سار في آفاق الأرض.

(يتبع) محمد فريد أبو حديد

كشف كنوز ألدورادو (١)

الزحف إلى الذهب

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

إذا ساءت حال إنسان في بلده ، وأدى به الضيق إلى تنكب الطريق القويم ، ودفعه إلى استباحة الجرائم والمعايب ، ثم صحا ضميره من سباته ودعاه إلى البراءة من ماضيه ، والتكفير عما فرط منه ، وتقويم ما زاغ من أمره ، فهو لا يلجأ في أكثر الأحيان إلى إرادة يستنجد بها ، ولا يعقد العزم على الصمود لنزعات نفسه ، وإنما يهتف به هاتف يغريه بالفرار من موطنه ، والاتجاه إلى بلد بعيد ، وإلقاء مثالبه وجرائره وراءه ، ويحسب أن تغير ما بنفسه لا يتم إلا بتغيير موطنه ، وأن البلد الجديد سوف يهيئ له حياة جديدة ، ويطهر نفسه من أوضار ماضيه .

رحل « جوهان أو جوست سوتر » من بلدة « روتنبرج » مدفوعاً بذلك الدافع ، ... قاصداً إلى أمريكا ليقيم المحيط الرابع ... حياته القديمة المهجورة . ركب البحر حوالى عام ١٨٣٤ ، (وكان يومئذ في سن الثلاثين) تاركاً وراءه زوجه وأطفالا أربعة . وانتهى به المطاف إلى مدينة « نيويورك » حيث زاول عدة مهن لم يطمئن إلى واحدة منها . وضاقت به المدينة الفسيحة ، وبرم بصخبها وضوضائها ، وتاقت نفسه الصديئة إلى الريف ، وأهاب به جمال الطبيعة وهدوء الخلاء ، فانتقل إلى « ميسوري » ، واتخذ الفلاحة مهنة واستطاع بعد مجهود يسير أن يقتني مزرعة تكفل له معاشاً ميسوراً .

سمع الناس يتناقلون أعجب الأحاديث من بلاد الغرب ، ورأى التجار يفدون من تلك الأصقاع النائية المجهولة ، ويصفون مناظرها الرائعة ، ويذكرون نواحها الطبيعي الجميل ، فأخذ روحه القلق يحن إلى المجهول ، ويتوق إلى اجتياز المفاوز الشاسعة المأهولة بالهنود الحمر ، والجبال السامقة المكللة بالثلج . وما الذي يمنعه من بلاد الغنى والجمال ؟ إنه لم يهجر وطنه وأهله ليعيش وسطاً بين الغنى والخصاصة ، وها هي فرصة الإثراء مواتية ، فلم لا يقدم ويحقق أمانيه ويعود سيداً غنياً مهيباً إلى زوجه وأولاده ؟

باع مزرعته وصبر قليلاً وانتظر أول ركب متجه صوب الغرب لينضم إليه . وفي يوم من أيام عام ١٨٣٨ استقل مركبة كبيرة تجرها الثيران ، وغادر البلد في صحبة ضابط وسيدتين وخمسة مبشرين ، وتنفس الصعداء إذ انبسط أمامه الفضاء الممتد امتداد الأبد ، وسير رجال الطريق المسافرين ، وطال السفر وأخذوا يعانون المخاطر الناشئة من سفرها ، وظلت الجبال ترفعهم والوديان تخفضهم ... حتى شغلهم التلال والسكالل ، ... انقضت على هذه الرحلة الشاقة ... إلى قلعة « فان كوفر » ، وماتت إحدى السيدتين من جهد السفر ، وكانت قلعة « كوفر » مقصد سائر المسافرين ، فاضطر « سوتر » إلى مواصلة الرحلة بمفرده ، وعبثاً حاول رفقاء الطريق أن يستبقوه معهم ، وكم زينوا له المعيشة في مدينتهم ، وكم حذروه أخطار الرحيل بمفرده في الأقطار النائية الموحشة ، ولكن بلاد « ألدورادو » كانت شغله الشاغل ، وكان كأنه بها قد جرى في دمائه ، فركب لذا البحر ، ثم قطع في سبيلها جانباً كبيراً من « ألاسكا » على ساحل المحيط الهادي ، وتجشم السرى ، وتابع الطريق حتى وصل إلى فرنسيسكو على المحيط ، تائه بين صحراوين الأرض والبحر يدعى « سان فرانسيسكو » ، وليس بين ذلك الثغر القديم وبين مدينة « سان فرنسيسكو » الزاهرة في هذا العصر وجه المشابهة ، وإنما كان موطن بعض صائدي

(١) هذا الفصل مقتبس من كتاب الكاتب « بليز سندرار » عن تاريخ حياة « جوهان أوجوست سوتر » .

الأمريكي تابعاً ولاية «كاليفورنيا» المكسيكية . تلك الولاية المهملة ، رغم أنها أخصب ولايات القارة الجديدة تربة ، وأغناها موارد طبيعية .

ما حل «سوتر» في تلك البقاع ، ونزل وادي «سكرامنتو» ، ورأى الأشجار الباسقة والأعشاب الكثيفة حتى وثق من خصب تلك الأرض البكر ، وأيقن أن قطوف آماله دانية ، وأنه لا يستطيع أن ينشئ في تلك الربوع مزرعة مثمرة فحسب ، ولكنه يستطيع أن ينشئ فيها مملكة مترامية الأطراف ينصب نفسه عليها ملكاً .

وعاد من جولته جذلاً راضياً ، وقابل حاكم الولاية ، وصارحه بما اعتزم من وضع يده على وادي «سكرامنتو» وتمهيده للزراعة والاستغلال ، فوافق الحاكم على المشروع ووعد برعايته وتأييده . ونشط «سوتر» للعمل ، فاستأجر عمالاً وطنيين ، واقتنى خيولاً وماشية وآلات عمارة وزراعة ، وسار إلى ملكه الجديد على رأس موكب كبير قوامه ثلاثة أتباع من الأوربيين ، ومائة وخمسون عاملاً وطنياً ، وثلاثون عربة محملة أنواع المؤن والذخيرة والآلات المختلفة ، وخمسون حصاناً ، وعدد عديد من البغال والثيران والبقر والخرفان . وحط الرحل على شاطئ نهر مسجور ، حيث قامت المستعمرة الجديدة التي أطلق عليها «سوتر» اسم «هلفسيا الجديدة» تخليداً لذكرى بلاده العزيزة عليه .

أشعل النار في الشجر ، فاندفعت ألسنتها مع الرياح والتهمت الغابات الشاسعة ، وانكشفت الأرض بهذه الطريقة الهينة منبسطة صالحة للزراعة . ودار العمل ، فقامت المنازل الخشبية وتكاثرت ، واتسعت رقعة الأرض المزروعة ، وتوالت المواسم وتضاعفت ، وأثمر المجهود المبذول ، وأربى نجاحه على حدود الأحلام والأطماع . ولكن «سوتر» لم يشبع ولم يهدأ ، وواصل الجهاد . جاء بأشجار الفاكهة من البلاد النائية ، وزرع منها مساحات مديدة ، وجلب أحدث الآلات البخارية المروقة ، إذ وجد الأيدي العاملة والبهم لا تكفي العمل الكبير ولا تسعف ، وأثث منزله برياش فاخرة طلبها من باريس ، ودفع عن كل شبر من أرضه غارات الهنود الحمر واللصوص الطامعين في ماله ، ولم يمر على هذه الحال عشرة أعوام حتى صار من كبار الأثرياء ، وذاع اسمه بين بيوت المال الكبيرة في أوربا ، وتوهم أن العمل إذا سار على هذا المنوال من التقدم والازدهار فلن يلبث أن يصبح أغنى رجل في العالم ، ولما استراح إلى هذه الآمال ، عاودته بعد الأعوام الطويلة ذكرى زوجه وأولاده المهجورين في أوربا ، فكتب لهم يدعوهم إلى اللحاق به .

* * *

في ليلة من ليالي يناير سنة ١٨٤٨ جاء «جيمس مارشال» النجار إلى سيده «سوتر» ممتقع اللون مضطرباً ، وقدم له حفنة من [illegible] المخلوط بالتراب ، وأخبره في صوت متهدج بأن بريق هذا المعدن الوهاج خطف بصره أثناء قيام العمال بحفر قناة في مزرعة «كولوما» . واحتبست أنفاس «سوتر» وانخلع قلبه لشدة وقع النبأ ، ولم ينتظر الصباح لينتقل إلى تلك المزرعة النائية ، بل جرى إلى عربته في غير وعي ، وركبها إليها غير عابئ بهول الظلام وعصف الريح في تلك الليلة الشتائية الداجية ، وطار النوم من عينيه ، ولم يكف أثناء الطريق عن مناجاة نفسه . سيصير إذاً أغنى رجل في العالم ، بل سيصيب غنى لم يصبه أحد قبله ، ولن يصيبه أحد بعده . فمن ذا الذي يملك أراضي شاسعة كأراضيه ؟ وها هي هذه الأراضي تحوي تبراً خالصاً ؟ من الذي يتدفق الذهب من بين أصابعه هذا التدفق ؟ هل من شك في أنه أغنى أغنياء العالم ؟

وصل إلى «كولوما» في الصباح ، وأسرع إلى المكان المسحور ، وفتح العمال سدود القناة فتدفق منها

الماء حتى ظهر قاعها الرملي . أحضر «سوتر» إليه . وأخذ منه حفنة ما كادت في كفه حتى تلألأت ذرات التبر الخالص . وتلفت حوله فرأى رجاله متكئين عليه يستطلعون رأيه فيما رأى . فلم يحاول تمويه الحقيقة ، واستحلفهم بشرفهم أن يكتموا الأمر حتى يتراولوا التبر وينقلوه إلى مكان أمين ، ووعدهم بالجزاء السخي في حالة برهم بيمينهم .

ثم علا إلى عربته . واستوى فيها ساهماً . وظهرت عليه سيماء الجد والوقار . وقفل راجعاً بها إلى داره . وطال به الطريق . وأبطأ الزمن . واقترست روحه أطماع عنيفة لا قبل لإنسان بها . وعاد إلى مناجاة نفسه : أهذا الكنز ملكي حقاً ؟ ! أأنا أغنى أغنياء العالم ؟ !

ولكن هل قدر له حقاً أن يصبح أغنى أغنياء العالم ؟ لا . بل أشقى من في الوجود ، وأشدهم فقراً ، وأولاهم بالشفقة والرثاء .

حدث له ما لم يحدث لغيره من الرجال [illegible] نظيره في التاريخ . فقد ذاع سر منجم الذهب ، وهل يمكن أن يبقى مثل هذا النبأ مكتوماً ؟ تناقلته الألسنة . وانتشر انتشار البرق في سهول «سكرمنتو» . فخرج عمال القوم ، واندفع خدم «سوتر» وصناعه وزراعه إلى «كولوما» تاركين خلفهم أعمالهم وصناعتهم ومهنهم ، طالبين ما حصلوا عليه في قلوبهم وعقولهم من غرابيل وأوعية لغربلة التبر وحفظه . وفي بحر ساعات قصيرة ، أمست مزارع «سوتر» الآهلة قفراً بلقعاً . وخلت أكثر مبانيها ونفق . فالبقر الحلوب لم يجد من يحلبها . فانتفخت ضروعها حتى تمزقت . وجاعت الماشية فحطمت قيودها . وجرت وراء أكلها في الحقول . فدهست الحرث وأتلفته . وتعطلت مصانع الجبن وآلات الفلاحة والري . وفسدت الأثمار ، وعم الخراب .

ولم يقف بث الشرور على الذهب عند حدود كاليفورنيا ، وإنما تعداها إلى الولايات المجاورة . ثم شمل جميع أنواع المواصلات ، فعبرت به أسلاك البرق ، وجرى به سعاة البريد . وتناقله الراكب والراجل . وطوى البلاد واجتاز البحار ، ووصل من أمريكا إلى أوربا ، فبدأ الزحف العام إلى الذهب ، وتجمع الناس من الشرق والغرب . ومن كل حدب وصوب . من كل ضارب في الأرض بقدميه ، ومن كل فارس أو راكب عربة ، واندفعوا على «كولوما» في صفوف متراصة متسابقة لا ترى العين آخرها .

وزحفت هذه الجموع المتحشدة . هذه الأمم المتنوعة الأجناس ، المختلفة الأشكال والألوان ، الناطقة بكل لسان ، في ضياع «سوتر» ومنازله ، فاكتسحتها في طريقها ، ولم يردعها رادع من قانون ، أو وازع من ضمير أو [illegible] من حس ، أو عاطفة إشفاق ورحمة ، وإنما اشتركت في شهوة الوصول إلى الذهب ، غير معترفة إلا بحق القوة والغلب ، أو غاشمة لا ناطقة إلا الأثرة والجشع .

[illegible] ربوع «سوتر» عنوة واقتداراً ، [illegible] وقطع شجر الفاكهة ليبني منها منازل نزوله ، واقتحم المخازن فنهب ما تحتويه من فاكهة وحبوب وتبن وحب ، وذبح الماشية والبهائم ، وشق وجه الأرض حفراً لا عمق أرضه ، وتنقيب عن الذهب في كل مكان ، وقلب كل حجر ومدر ، وعاث في الربوع الخصيبة حتى أجدبت .

ولم يقف الهرج والمرج عند حد . بل ظل الخطب يفدح والكارثة تتفاقم ، فقد تألفت الشركات لتوفير وسائل جديدة للنقل . وأخذ بعضها في مد سكك حديدية من شرق الولايات المتحدة لغربها . وفي بناء سفن تدور ركابها حول رأس هورن . وصار لاسم «الدورادو» وقع كوقع السحر . وصمت الآذان وسيل أولئك الوفود يشتد ، حتى خشيت الدول أن تتحول رعاياها إلى غرب أمريكا ، وتترك أوطانها خاوية على عروشها . وانقلبت الهجرة إلى

غزوة استباح فيها الغزاة البلاد المغزوة. فاغتصبوا أراضي «سوتر» وأخذوا يبيعونها لحسابهم، كأنما هي حلال لهم. ووقفت على أنقاض «سان فرنسيسكو» — ذلك الثغر القديم الذي سبق لحكومة المكسيك أن نقلت إلى «سوتر» حق ملكيته وملكية الأراضي المحيطة به — مدينة عظيمة زاهرة. وضاع وسط طوفان الناس اسم «هلفيتيا الجديدة» كما ضاع حق مالكها.

حاول «سوتر» الشيخ أن يشارك الغاصبين في الحصول على شيء من تبره الدفين. وطلب عون أتباعه القدماء، فازوروا عنه وأهملوه، ولم يهتم أحد منهم إلا بشأنه. وضاع المسكين في معمعان النهب والسلب. وهجر أراضيه وهو يستنزل اللعنة على الذهب ويوم ظهوره في قلب الحقول المشئوم. ولاذ بمزرعة نائية مهجورة صفر اليدين، يكاد يستجدي السابلة. فصار مثل «ميداس» الذي اختنق بالذهب الذي تمناه.

ولحقت به في ذلك الأوان زوجه وأولاده وكلهم [illegible] جاءوه بالعهد القديم وما اشتمل عليه من إملاق وشقاء. ولم تلبث الزوج المسكينة أن لقيت حتفها من شدة حزنها على النعيم المفقود. ولم يطل عهد النكد والضيق. إذ وجد «سوتر» في أولاده شبابه المتجدد. واعتمد على سواعد أولئك الفتيان الثلاثة في إدارة مزرعة جديدة. واستعان بأعضادهم القوية على حرث الأرض وتربية الماشية؛ ولم يلبث اليسر أن والاه بعد العسر، بفضل حزمه ومثابرته وخصوبة أرضه.

* * *

انسلخت كاليفورنيا عام ١٨٥٠ من المكسيك، وانضمت إلى حكومة الولايات المتحدة. وكان لتبر الذهب الفضل الأول في هذا التغيير السياسي. لأن المهاجرين من ولايات الغرب أربوا على عدد القاطنين الأولين، فصاروا حزب الأكثرية، وآثروا الانضمام إلى بلادهم الأصلية. وسارعت حكومة وشنطن إلى القبض على ناصية الحال في تلك المقاطعة الهائجة الآثمة، وقضت على الفوضى، واسترد القانون سلطانه، وتوطدت دعائم النظام، وخفت وطأة حمى الذهب.

وما فتحت محكمة «سان فرنسيسكو» أبوابها حتى كان «جوهان سوتر» أول عميل من عملائها. ادعى أنه مالك المدينة وتخومها وضواحيها وما جاورها من البساتين والحقول الممتدة حتى سفوح الجبل. وقاضى عشرات الآلاف من الملاك مطالباً برد ما اغتصبوا من أملاكه ومن تبر مناجمه، وبتعويضه عما تلف من مصانعه الكبيرة ومحصولاته الوفيرة، وبساتينه الزاهرة، وسوائمه التي لا تعد. وأرسل ابنه الأكبر «أميل» إلى وشنطن ليدرس القانون، ثم يباشر بنفسه هذه الدعوى الكبرى حتى يأمن خداع المحامين. وطالت إجراءات التقاضي، واستمر نظر الدعوى أربع سنوات.

وفي ١٥ [illegible] سنة ١٨٥٥ صدر الحكم في الدعوى، ووجد «طومسون» القاضي العدل الذي لم يستخفه وعد ولم يرهبه وعيد، أن «سوتر» محق في مطالبه، فقضى له بها. فانتعشت الآمال بعد مواتها، وإذا بالحظ يعود إليه بعد النحس، وإذا بالذهب يرجع بعد اليأس منه، وإذا به يصل إلى هدفه.

عاد قلبه إلى الخفوق، وأعصابه إلى الاختلاج. ها هو في هذه المرة أغنى أغنياء العالم بغير منازع... ولكن هل رضي القدر بتحقيق هذه الأمنية الكبرى؟

أغنى أغنياء الأرض؟! كلا. وكلا. بل أشأم أهل الأرض طالعاً، وأنكدهم حظاً، وأكثرهم بلاءً.

قوبل حكم القاضي «طومسون» بالسخط العام، وأخذ الحرِق من القوم في إعلان تذمره. فثار العامة الذين اعتادوا منذ استوطنوا «كاليفورنيا» أن يعبثوا بمبادئ القانون، ويستخفوا بحرمة الحق والعدل. وحال

القدس إلى تورد. وخطر لبعض الموتورين أن يتوجهوا إلى دار المحكمة محتجين. وساروا في مظاهرة ابتدأت هينة الخطب. ولكنها تطورت فصارت خطيرة غير مأمونة بما انضم إليها من الرعاع الذين يحتفلون أبداً بالقلاقل والثورات، ليُجرى لهم الصيد في الماء العكر. وألقوا الوقود في النار بهتافهم الصارخ ضد الحكم الظالم. وبندائهم الحار بسقوط محكمة الطغيان. وهرع الناس إلى المظاهرة من كل ناحية، وانضووا تحت لوائها. ودبت في أعصابهم كهربائها. واستفحل أمرها واستشرى حتى استحال إلى ثورة عامة. وأصبحت الجموع المتكاثرة تموج كالبحر الزاخر. وتهدر هدير موجه الثائر. وتحرق إلى العدوان والإتلاف. ووصلت إلى المحكمة فأضرمت فيها النار. وتهجمت على القاضي الوقور فأوسعته إهانة وضرباً، حتى كادت تقضى عليه. ثم غادرت المحكمة فريسة للنيران واندفعت إلى مزرعة «سوتر» [illegible] في طريقها كل ما صادفها من مال [illegible] قاصرته. وما رآها الرجل وهي مقبلة نحو [illegible] وحاول الفرار وأولاده. فلم يقره على هذه الخطة إلا أصغرهم، وأبى الآخران إلا أن يصمدا للثائرين. ويدافعا عن حق أبيهم، ويقنعاهم بوجهة نظرهما. وحسبا أمر إقناعهم سهلاً، إذ كيف لا يقتنعون والحق ظاهر؟ أليس لدى أبيهما حجة شرعية بملكية القاع المتنازع عليه؟ ألم يقم بإصلاح هذه الأراضي شبراً شبراً حتى أخصبت واخضلت؟ ألم ينفق شرخ شبابه ويستنفد قواه في العمل الشاق المضني، حتى وطّد هذه المستعمرة الزاهرة؟ أفقد هؤلاء القوم كل شعور بالعدالة؟ أأقفرت قلوبهم من كل عاطفة انسانية؟ أماتت ضمائرهم في جنوبهم؟

وجابه أحد الأخوين الجماهير الحانقة، وبدأ يؤيد حق أبيه، ويسفّه ثورتهم الآثمة. فضاع صوته بين الصخب الداوي؛ وأخذ الرعاع رجموه حتى سقط مضرجاً بدمه، وخطا الحانقون على جثته وهم يقتحمون الدار. ورأى الأخ الثاني أن يموت بيده فانتحر، وأشعل الهاجمون النار في المنزل المخرب بعد أن نهبوا كل ما حوى من رياش ومال. وحطموا أثناء هودجهم كل ما بقى قائماً سليماً في المزرعة، وبقروا بطون بنائها وماشيتها، وغادروها يباباً بلقعا. وكان «سوتر» قد تمكن من الهرب مع ابنه الثالث الذي لحق بأخويه، إذ مات غرقاً في طريق أوبته إلى مسقط رأسه.

* * *

لم يشف «سوتر» بعد فقد زوجه وأولاده وماله، من هول كارثته بقية لياليه، ولم ينهض من كبوته. فقد قسم الهم كاهله. وطمس عقله الذي لم يبق منه إلا ناحية سليمة تجمع إلى ناحية واحدة من التفكير، إلى ناحية هذه الهموم، والقضايا التي سوف يرفعها لاستعادة [illegible] «وشنطن» شيخاً هرماً يرتدى [illegible] بأثواب ممزقة، ويطرق في هيئته الغريبة أبواب المحاكم والمجالس النيابية والوزارات، ويطالب بملايينه المغتصبة، ومضى ثلاثين عاما يسعى وراء هذه الملايين من غير أن يكل أو ييأس، ويعرفه الناس باسم «الجنرال»، واتخذه كل هازل ماجن موضوعاً لفكاهته في مجالس اللهو والمجون، وكانت الحكومة تمنحه إعانة شهرية صارت من رزق المحامين الذين أوهموه في روعه أنهم قادرون على تحقيق مطالبه [illegible] المال.

ظل هذا الصعلوك صاحب الملايين يجرى وراء سراب لامع، لا يرى أو يسمع أو يعي غيره، حتى توفى على عتبة مجلس النواب في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠، وحمل بعض المارة جثة هامدة ذليلة وفي جيب ردائها حجة تثبت امتلاكه مدينة تعد عاصمة الولايات المتحدة الثانية، وولاية هي أغنى ولايات الأرض

محمد مفيد الشوباشي

«رغبـــــة الخلود»

(إلى طلبة كلية الآداب الذين سافروا في رحلة الآثار إلى الصعيد)

للأستاذ محمد مندور

لم يكن باستطاعتي أن أجيبكم لساعتي إلى ما طلبتم من رأيي كلما زرنا أثراً مما خلف أجدادنا ، وأنَّى لي بالعبارة عما كنت أحس ، والإحساس لا يسكن إلى لفظ أو يتناوله التفكير فيحيله رواسب عقلية . ولقد كان مثلي مثل من ينزل به حادث جلل فيذهله عن نفسه ، ولكنه لا يفطن إلى مداه حتى يصبح شعوره مادة لتفكيره ، فعندئذ يعمق ذلك الشعور وإن هدأت ظواهره ، وعندئذ تمكن العبارة عنه وإن اشتد تأصله بالنفس ، وعندئذ يستحيل الإحساس معاني عقلية يمكن أن أحدثكم عنها .

ولقد سرت إلى آثار أجدادي ونفسي أشبه [illegible] ما رأت بلاد اليونان ، وقد [illegible] آثارها ما أيقظ الرغبة في رؤية ما خلف ذلك الشعب الذي بلغ حبه للجمال حد العبادة ؟ فعندهم نشأت الفنون كما نشأت عند أجدادنا في كنف الآلهة ، ولكنهم لم يلبثوا أن تخطوا العبادة إلى الجمال ، فاستقلت الفنون واكتشفت قيمها بذاتها ؟ وأي عبادة في تماثيلهم التي تغص بها متاحف العالم ؟ ولعلكم ذاكرون كيف أقاموا النصر على الفرس تمثالاً في صورة فتاة هيفاء جعلوا لها أجنحة من مرمر ، ثم قصوا تلك الأجنحة ليظل النصر بديارهم ، ولهذا التمثال أقاموا معبداً رشيقاً إلى جوار مدخل «الأكروبول» ، لا يزال إلى اليوم يحمل ذلك الاسم الجميل «النصر المهيض الجناح» .

ببلاد اليونان صمت الأحجار أقص من الناس أجمل القصص ، ولقد تنكر من قبل أناس لماضيهم ، وقد أخذهم سحر «الأولمب» ، فأتى «رينان» مسرعاً ليخف إلى قمة الأكروبول يضرع بالصلاة إلى آلهتها ، وقد صدف عن أنشودة الأناشيد ليستمع إلى ربات الشعر ، وهجر قباب الكنائس القوطية ليأوي إلى أبهاء المعابد الدورية ، وهاجر «بيرون» من بلاد الضباب إلى بلاد الضوء ليريق دمه في سبيلها ، وفي جمال آلهة قومهم ما يغري ، ولكني — أيها الشباب — موزع النفس ، وفي حنين إلى تراث أجدادي .

وتراثهم كشكل تراث أشبه ما يكون بصفحة كتاب حيث يقرؤه فرد فلا ينفذ إلى غير معانيه القريبة ، ويقرؤه آخر [illegible] لفظ فيضاً من حس أو فيضاً من [illegible] من غنى أو فقر إلا بقدر ما بنفس هذا القارئ ، أو ذاك ، والأمر فيها كالأمر فيما عداها أمر تفاوت بين النفوس واستطراد لمحصولها . ولكم من زائر لا يفهم للحجارة لغة ، ولا يحس جرساً ، لأن نفسه هواء ، ولكم من زائر يرى في كل شجرة زيتونة مقدسة ، وفي كل واد مستقراً للملوك . وحضارة أجدادنا تسمو إلى آلاف السنين والزمن عادية تذهب بكل شيء ، حتى لقد اضطر كبير آلهة اليونان أن يقتل أباه كرونوس (أي الزمن) ليفلت من الفناء ، ولهذا لم يصل لنا من آداب أجدادنا إلا القليل مما نقشوا فوق الحجارة . وأما اليونان — وأقدم ما كتبوا لا يرجع إلى أبعد من القرن العاشر قبل الميلاد — فقد انتهى إلينا الكثير من تراثهم العقلي نقرؤه اليوم فنحيا بالنفس ذلك الجو الذي تنطق فيه الحجارة .

ولكني لا أكذبكم أن ما رأيت من معابد أجدادنا

قد تركت النفس أثراً ما أظنه سيزول يوماً ما ، وكيف يزول أثر ما صدر من الخلود وفيه تتركز مُثُل قيمهم ؟ شغفوا بخلود الروح واتخذوا إلى الخلود سبيله ، وها نحن لا نزال إلى اليوم حيارى ، لا ندري على أي حال ستعود أرواحنا ؟ ألى أجسام من نور أم إلى ما سوف يبعث من رفات يوم نشر القبور ، وأما أجدادنا فقد استقر رأيهم على عودة الروح إلى ما تخيرت من جسم ، فحاولوا الاحتفاظ به ، وإلى جانبه أقاموا ما نرى من تماثيل لتسكن إليها الروح إن أعطلت جسدها ؛ ومن هنا جاء حرصهم على مشاكلة التمثال للجسم حتى لا تضل الروح ، فجاء فنهم على ما هو عليه من واقعية .

إلا أنهم لم يقفوا في فنهم عند حد الدقة أو الضرورة ولو أملاها الإيمان ، فالتمسوا الجمال كذلك كما التمسه اليونان من قبل ؛ ولعلكم تذكرون ما حاولنا سوياً أن نتبين السر فيه مما يسميه علماء الآثار « قانون الجبهة » فيما نشاهده على جدران القبور والمعابد من صور ، [illegible] صور صدره كأنه يواجه الناظر ، بينما صور الوجه والقدمين واليدين كأن الناظر يراها من جنب ، وهذا وضع مستحيل يفسره حرصهم على إظهار ما في الجسم من جمال الخطوط ، وقد اتسع الصدر لينحدر إلى الخصر الناحل ، ولاحت معالم الوجه أجمل ما تكون في مقطعها الجانبي ، وانبسطت الأقدام ، كما لاحت أصابع اليد ممتدة الطول دقيقة الخلق مسحوبة الأطراف على نحو ما نرى عند كل أصيل عريق من الناس .

ولعلكم تذكرون كيف كنا نتساءل : أكانت هؤلاء القوم جميعاً شباباً ممشوق القد حتى تقام لهم كل تلك التماثيل ، فلا نجد بينها تمثالاً لشيخ قبل عصر صان الحجر ، ولا لمريض ولا لذي عاهة إلا ما ندر ، وفي هذا أيضاً رأينا جنوحاً منهم إلى الجمال وتخطياً لضرورة الدين . ومن يدرينا ؟ لعل أرواحاً منهم وقفت تحيي هذا الشغف بالجمال فضلت عن جسمها ، وظلت إلى اليوم حائرة تصيب بأذاها كل من تمتد يده إلى مأواها بسوء ، على نحو ما كانت تهيم أرواح اليونان إذا لم تؤد تراب الوطن .

ومواكب الأيام التي رأيناها على جدران معبد الأقصر . أما تذكرون تلك المحاولة الساذجة المؤثرة التي لجأوا إليها ليرضوا رغبة الناظر في رؤية الأشياء ، وقد تتابعت في المدى بعضها خلف بعض ، وقد التوت بهم سبل الفن فعجزوا عن الفطنة إلى استخدام نسب الأحجام وتوزيع الضياء والظلال والألوان وأنصافها ، فعبروا عن المدى بوضع القريب تحت البعيد ، على نحو ما رأينا من رجال على الشاطئ ، يجرون مراكب الموكب المقدس ، وقد انطلق من الكرنك إلى الأقصر ، ومن فوقهم يبدو النيل ، والمراكب تخوض فوقهم . أليس في ذلك حرص منهم على جمال النسب والأبعاد ؟ أليس في ذلك إحساس فني خالص بوجهة نظر الرائي ، على نحو ما كان يفعل الاغريق عندما حاولوا خداع النظر [illegible] ، فأقاموا آخر عمود من أعمدتهم مائلاً قليلاً إلى الأعمدة الداخلية ، حتى لا يلوح للرائي كالذاهب إلى الفضاء ، أو عندما زادوا قليلاً في محيط الأعمدة كلما ارتفعت ، حتى يراها الرائي متساوية من أسفل إلى أعلى .

وفي وادي الملكات ، أما تذكرون تلك الأميرة الجميلة التي صوروها بتلك الألوان النضرة ، وفي ملامح الأمل للجمال ما لا يزال يؤمن به أرق القوم ذوقاً بأوروبا اليوم ؟ وهل بعد هذا الخصر الناحل وتلك الصيغ الجميلة الاستدارة وذلك الثوب الأبيض الشفاف الذي يحوي معالم الجسم من جمال . وهبهم لم يفطنوا إلى استخدام توزيع الضوء ، وهبهم لم يلتفتوا إلى تدرج الألوان واستخدام أنصافها . ترى أبلغ كل ذلك شيء ، من جمال ما رأينا ، وفي تخطيطهم له بساطة وتناسق في النسب يهفو إليها كل بصر ؟

لقد كان أجدادنا أشد شعوب الأرض تديناً ، وكانوا من أحرص الناس على التقاليد القديمة ، وفي ريفنا اليوم

هذا الخلق ، وفي أشرف أسر أوربا وأعرق أممها مجداً نفس النزعة ، وإلى اليوم لا يزال الانجليز يماشون موت ملوكهم وقيام خلف له بأصوات المدافع في الطرقات أو على ظهور الخيل ، رغم ما وصلت إليه المدنية الحديثة من سبل الإذاعة ؛ ولهذا ظل فن أجدادنا حبيس أصوله الأولى ، ولهذا عندما تطورت عبادتهم من عبادة الحيوانات لذاتها أو لما ترمز له من صفات ، إلى عبادة بشرية ، لم يجدوا سبيلاً إلى التوفيق بين أصولهم وما ساروا إليه غير الجمع بين رؤوس الحيوانات وأجسام البشر .

لم يستطع فن أجدادنا الخلاص من الدين ، ولم تستطع نفوسهم أن تتحرر من القديم ، وطغت رغبة الخلود على كل حياتهم ، فجاء فنهم أبعث للروعة منه للجمال ، وأعوزته حرية الخيال وانطلاق النفس وراء الجمال ؛ وظل فنهم مثلاً قائماً كمعابدهم تتدرج فيها من فناء إلى بهو أضيق إلى قدس أقداس ، وكلما سرت من حجرة إلى … بك أرض المعبد وازداد الظلام من حولك .

فيا عجبا ! أما من سبيل إلى الخلاص … ؟ أما من سبيل إلى تحرير نفوسنا ؟ أما من سبيل إلى التماس الجمال لذاته ؟

وقف خيال أجدادنا عند ما حولهم من جماد أو حيوان ، فعبدوه رغبة أو رهبة ، بينما خلق اليونان آلهتهم خلقاً وخلقوهم على شاكلة البشر ليكونوا ألصق بهم وأقرب إلى قلوبهم ، فآلهتهم تأمل وتفرح ، وتقتتل وتتصافى ، وتتحاب وتتعادى كما يفعل البشر سواء بسواء .

رهب أجدادنا ما حولهم أو التمسوا فيه صفات أعوزتهم فعبدوه ، وشل ذلك من خيالهم ، بينما ملأ اليونان ما حولهم بعرائس الخيال ؛ ففي الجبال والأنهار والوديان والجداول وينابيع المياه ربات تشدو وترقص ، ولكلها ما للبشر من صفات ، ففي الوجود كله معان بشرية حملت القدماء على تسمية آدابهم بالآداب الإنسانية .

ولهذا أتمنى أيها الشباب أن يكون في حرية خيال اليونان وعبادتهم للجمال وفطنتهم لرونق الأوضاع ورشاقة الحركة وتوزيع الضياء ، وبث الحياة في الحجارة وخلع المعاني الانسانية على الطبيعة ، ما لا يزال يكمن بين أحناء نفسي ، وقد خلقت حراً أحب الحياة وتهتز نفسي لجمال الوضع وجمال الحركة .

ولكني كلما ذكرت وطأة الزمن وهول الفناء وعطشنا إلى الخلود ، عدت إلى جوار أجدادي ، ووددت لو استطعت أن أركن إلى أمثل كأمثلهم وفيه ما يسحر الخيال ، وقد عشقت النفس سجنها حتى لترجو أن تعود إليه لتفر من فراغ الوجود المطلق ، وقد انتشر من حولها ما ألفت في دنياها . وللجمادات روح ألصق بروحنا فتحملها على المحبة ، وهذا خلود تهدأ إليه حواسي ، وقد أحاطته صور الحياة من كل جانب ؛ فهذا قلمي وهذا كتابي وذاك معولي وذلك محراثي ؛ إلى ثروة تستشعر النفس عندما تتعرف إليها … فقدت ، وقد أمنت غوائل الفناء ووحشة الخلود المجرد .

لقد صاح من قبل بقلوب الشعراء صائح : « أيها المحطم الباقي ستتحطم تماثيله » واهتزت لذلك أفئدة لا ترى الجمال في غير ما هو فان ، حتى لكأنها تعشق ذلك الفناء ؛ فالوردة تطربهم لما هي سائرة إليه من ذبول ، كما يخفقون لاستنشاق أول نسمات الربيع لأنها لا تدوم . ولكم من صوت ارتفع يشكو أبدية الطبيعة التي تبقى بعد البشر تباعاً بين أحضانها ؛ ولكني لا أدري كيف يكون منطقهم لو أنهم آمنوا بما آمن به أجدادي من خلود الحياة ! وأكبر ظني أنهم ما رغبوا إلا ذلك النوع من الوجود الذي تخلو فيه النفس لذاتها على نحو ما يقول « فرلين » : « ما أشقه لنا ذلك الذي نجد عنده ما يخلو القلب من كل حب أو بغض » .

محمد مندور

٢ – نقد لا يقره أدباء مصر

بقلم الأستاذ مصطفى مشرفة

هذا من جهة الصياغة واللغة في الشعر العربي . أما من جهة الهيكل والمادة فالوحدة الفنية شرط أساسي فيهما ، وهي من الأهمية بحيث تكون أول ما يتحسسه الذوق الغربي في القصيدة التي يشترط فيها أن تكون وحدة فنية قائمة بذاتها ، وأن يكون لتكوينها أثراً أكبر من أثر مجموع أبياتها إذا أخذ كل على انفراد ؛ هذا التأثير الكلي يجب أن يتوزع توزيعاً يتناسب مع طول القصيدة ، وأن يستمد من هيكلها ومادتها أكثر مما يستمد من مفردات أبياتها .

القصيدة إذاً كمثل فهي لا تشبه باقة من الورود يكون جمالها إلى حد ما في مجموع جمال فرادى ورودها ، بل تشبه شجرة ورد حيث الجمال في مجموع سيقانها وأغصانها وورقها وورودها ، وكل هذا مصوغ في صيغة شجرة .

يصعب علي أن أضرب هنا مثلاً إيجابياً من الشعر العربي لأوضح به هذه النقطة ، لذا أكتفي بالأمثلة السلبية الآتية :

١ – كل قصيدة عربية تبتدئ بغزل وتنتهي بمدح تنعدم بذلك وحدتها .

ب – الأبيات الآتية للمتنبي في وصف « بحيرة طبرية » جمالها من نوع جمال باقة الورد ، لا من نوع جمال الشجرة ، فهي ليست بقصيدة ، بل هي مجموعة من الأبيات الشعرية كثير منها يروق للذوق الغربي .

(١) لولاك لم أترك البحيرة والـ
غور دفيء وماؤها شبم

(٢) والموج مثل الفحول مزبدة
تهدر فيها وما بها قطم

(٣) والطير فوق الحباب تحسبها
فرسان بلق تخونها اللجم

(٤) كأنها والرياح تضربها
جيشا وغى هازم ومنهزم

(٥) كأنها في نهارها قمر
حف به من جنانها ظلم

(٦) ناعمة الجسم لا عظام لها
لها بنات وما لهن رحم

(٧) يبقر عنهن بطنها أبداً
وما تشكى ولا يسيل دم

(٨) تغنت الطير في جوانبها
وجادت الروض حولها الديم

(٩) فهي كماوية مطوقة
جرد عنها غشاؤها الأدم

والدليل على عدم وحدتها أن من الممكن أن تقرأ أبياتها بالترتيب الآتي مثلاً .

١ ، ٨ ، ٩ ، ٣ ، ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٥ ، أو ١ ، ٦ ، ٧ ، ٢ ، ٤ ، ٣ ، ٥ ، ٩ ، ٨ .

وغير هذا الكثير من التباديل ، ومع ذلك فالوصف مستقيم والجمال غير ناقص ، وهذه العملية لا يمكن إجراؤها على قصيدة جيدة غربية من تسعة أبيات لشاعر من الدرجة الأولى من غير إتلاف هيكلها .

هذا مجمل ضئيل لا مناص منه ولا من ضآلته ؛ فقد حتم ضيقه واختصاره أني أكتب في مجلة ؛ وحتم كتابته رغبتي في أن أبين القواعد التي أحكم بها على شعر التونسي

حتى يحكم القارئ لنفسه إن كانت مقدماتي تؤدي إلى نتائجي أم لا

وسأتم كتابتي أيضاً كرهي لأن يقتصر النقد على «ما أجوده» و«ما أقبحه» وعلى أن الزجل والعامية من ناحية، والشعر والعربية الدارجة من ناحية أخرى، أصبحت في مصر أمر مقابلة بين أدباء بمعلومات يكتبون في المجلات لتثقيف المتفرجين، وبين عوام رقاق الحال يشغلون الرزق بتسلية الناس. وأنه أمر مفاضلة بين حياة أقبلنا عليها، هي حياة الشوارع المعبدة للأسفلت والسيارات، والعمارات ذات المصعد الكهربائي، والصالونات الوثيرة الأثاث، والبذلة والفستان، وبحالة كل ما يمتاز به حي الأفرنج مثلاً في بور سعيد، وبين حياة نخجل منها كشعب، ونتحاشاها كأفراد، هي حياة الحارات والربع وغرفة السطوح والحصيرة والطبلية وكل ما يثيره في الذهن حي العرب من صور ومعان. وإنما أصبح الأمر في مصر أمر عوام متواضعين لا قيمة لهم إلا بقدر ما يفكرون وقدر ما ينطقون به من سطح البيئة، وأمر خاصة تملك لغة إضافية تمتاز بها عن بقية الناس، وتمتز بمعرفتها كما يمتز المتكلمون بالفرنسية أو الإنجليزية بهما.

فإذا كان هذا التقدير خطأ مني، وإذا كان إقبال أدباء مصر على عربية الدارس أمر تذوق أدب يرونه في العربية كما يرونه في الفرنسية مثلاً، إذا كان الأدب يهمهم فما الذي يصرفهم عن رؤية أمثال هذه الصور وتقديرها كأدب ممتاز:

وصف سلاملك:

وع السلاملك كان صبارة في ومبل

وكنب مرتم والبلوبة وفل جميل

وشخص راجل خروف والغف عريض وطويل

يحمى الجنينه، وقلة تحت منها ماجور

وفوقه ع الباب تشوف في الوش فوق الراس

حجاب وحدوة حصان كانت في رجله مداس

وعنة وجنينة قال تعمى عيون الناس

والباب ملوش أكره واللوح القزاز مكسور[1]

أو (أم مصرية):

. . . .

الصبح نبتله لما يخرج صرمي

ترقيه ثلاث مرات بآية الكرسي

ويفوت سبع خطوات على العتبه

وتقول يا قادر يا كريم تهديه لي

أنت اللى آمر فلطش مديه لي

بقدرتك من رعة أبوه خليه لي

ما يأخذ بأيده عزابه[2]

أو (داخل سوارس):

قعدت جنب الشبين أشرب هناك خروب

بين فسقل بين جدع عايق وبين كركوب

وتلبسه في الوش واحدة وأبهيا القلوب

سيوى زى اللى راكبه ستميت عفريت

طلعت لنا شبه بص لها اللى جنبي وصاح

طلع كأن بصة منهيا شيخ جد فلاح

عمته مرجين ومرجينة حطهم والزكاح

قال العجوز اللى جنبي: سوق بي يا بخيت

* * *

يا خلق لسه الولد نازل بكا وعياط

والوش فرقان لشوشته في صاص وغاط

الحلو، قالت لأمه: يخلى ابنك شاطا!

قالت: مارزق اشتري له افندي كتاكيت[3]

(١) من «الأسطى على منصور» من ديوان الشاعر ص ٩١.

(٢) من «دكان صرمي» من ديوان الشاعر ص ١٠٤.

(٣) من «ركاب سوارس» من ديوان الشاعر ص ٦٠.

ما الذي يعرفه قراء « هومر » بين أدبائنا أو قراء « لتشوسر » أو « موليير » أو « شكسبير » من وصف يفوق في حسيته وقوة إيحائه ودقته وأمانته هذا الوصف ؟ أنا لم أقرأ « هومر » ولا « موليير » إلا ترجمة ، ولا أرى لي حقاً في تقدير شعر أو أدب إلا إذا قرأته في لغته الأصلية ؛ ولكني قرأت « لتشوسر » وقرأت « شكسبير » في لغتيهما الأصلية ؛ وأنا لا أقارن هنا بين التونسي وبينهما ، إذ أني لم أقرأ للأخير غير ديوانه وقصصه ، ولكني أقرن عبقريته بعبقريتهما ، وأرى أن خير ما فيه يقرب كثيراً مما يماثله من خير ما فيهما .

في شعره القصصي وهو حوالي ٢٤ قصة أو صورة إن شئت ، وقد اقتبست منه هنا ما يتسع المجال له ، أرى لغة تثير في المخيلة صوراً حسية تجعلني أجزم بأن التونسي مع ولي ورأى الحياة حوله بحواس مرهفة لا تهب الطبيعة مثلها إلا لشاعر ، وأنه لا [illegible] موقف المصلح أو الفيلسوف فيحللها أو يحكم [illegible] بشيء منها ، إنما هو يعطينا تجاربه فيها ، كما يجلو الشعراء تجاربهم في ألوان سحرية ، لا هي كل ما تراه العين ولا هي كل ما تهبه الروح أو تحسه ، فهي مزيج من مقادير ونسب عبقرية الرجل وفنه . وفي كل من هذه القصص أحسست بوحدة حية فنية وبأن شعوري كان يقوى في نفسي قراءة البيت تلو البيت ، حتى إذا انتهت القصة أو الصورة كمل بذلك هذا الشعور .

هذه كانت تجربتي ، وهي لا تبرهن على شيء لأحد سواي ، ولكن القارئ يدرك أن النقد التفصيلي حتى لواحدة من تلك القصص مستحيل هنا ، فأنا أدعو أن يقرأها القارئ لنفسه تحت ضوء ما كتبت عن الفن القرن ، وأن يحاول عند قراءتها أن يتناسى آراءه في العربية والعامية ، فهذا تقسيم نحوي لفظي لا علاقة له بالأدب ، وليذكر أن أليق لغة لأدب ما هي لغة من يكتب فيهم هذا الأدب ، فلا عربية المدارس ، ولا أي لغة من لغات الأرض ، بقادرة على وصف حياتنا كما تصفها لغة حديثنا على لسان شاعر موهوب .

ويوجد غير هذه الصور المصرية في ديوان التونسي صور أخرى غريبة لا يقل الكثير منها في روعته وشاعريته عن الأولى ، وهي صور تذكرنا بشعر أوربا الحديث ، وتشترك مع كل شعر الشاعر في خاصة الجرأة في تخير الكلمات ؛ فالتونسي « كأليت » و « بودلير » و « جويس » ، وغيرهم من المحدثين لا يهاب « الكلمة الوقحة » إذا أملى عليه الفن استعمالها .

وأبدع هذه الصور الغريبة ، بل ربما كانت أبدع ما في الديوان هي قصيدة (صافقص الزنج في باريس) ، والحق أني لا أذكر أني قرأت في العربية شعراً وصفياً تآلفت [illegible] ... وأصوات كلماته واتحدت مع [illegible] كما تآلفت واتحدت معاني هذه القصيدة وأصواتها وموسيقاها . وأنا أنقل هنا للقارئ الذي لا يتاح له قراءتها في ديوان الشاعر بعض أبياتها ليحكم لنفسه ، ثم أطلب ممن لديهم الديوان أن يقرءوها كما قرأت مثل :

تحت في الظلام يا شيخ   تجمع السمور والزنج

أو :

تنج من عال أشكال   تنج من لم شغال
من جعب قصار وطوال   شخلم لم شياطين

أو :

طبلة العبيد السود   دايرة والتقيير ممدود
تحت أم أجمل عود   تنقتل شبال وعين

أو :

تسمع الودع يشن   يقلب اللابكة يجن

فريديك هورنيمان (*)

مثال آخر للإقدام

للأستاذ محمود الدسوقي

تحدثنا في عدد سابق من « الثقافة » عن الرحالة يوهان لودفيج بوركارت أو الحاج إبراهيم سلطان اللوزاني (نسبة إلى لوزان مسقط رأسه) ، وما كنت أقدر أن يهم أمره الأستاذ الجليل أحمد أمين ، فيطالب إلى المزيد من الكتابة عن مؤلفاته . وإنها في الحق لأمنية جاش بها صدري ، فلما وجدت مثلها عند الأستاذ أسقط في يدي ؛ فلست أجد السبيل إلى كتب بوركارت ورسائله الآن في الآفاق ، وهي كثيرة ، عزيزة قيمة ، لكنها مشتتة في الأورقة الراقية في مثل من الآثار . والقليل الموجود منها صعب المنال ، جم التكاليف . ... لبوركارت ، ولكني قد قرأت عنه ... على بعض مؤلفاته عندما كتبت عن الدوريات أزماني ما طلب فيها من ثمن ، فتراجعت . على أني قد حاولت في هذه الأثناء أن أطرق أبواباً أخرى ، ولعلها تفتح لي في القريب إن شاء الله .

وبعد فإنه إن فاتني الكلام عن مؤلفات بوركارت ، فلن يفوتني أن أعرض لشخصية كانت رائداً لبوركارت ومثالاً أراد أن يحتذيه ، وأن يتم ما بدأه : شخصية عقدت بها آمال كبار في البحث والكشف ، فلم تلبث أن اختفت ، وعثرت على البحث والكشف . تلك هي شخصية فريدريك هورنيمان أول رحالة أتاني إلى أفريقيا .

وأفريقيا قارة تختلف والقارات المكتشفة اختلافاً كبيراً ؛ ذلك أن أمريكا لم تكد تكتشف حتى ارتيدت أرضها ، لكن أفريقيا لم يعد الاكتشاف شواطئها ، ولم يتجاوز إنجلترا هذه المناطق الآسيوية .

لقد كان كل هم جوابي البحار البرتغاليين المشهورين أمثال كوفيلهان Covilham ، ودييجو كاو Wiego Cao وبرثلميو دياز Diaz ، متابعة الطواف على امتداد شواطئ أفريقيا ، شاطئاً شاطئاً . ولعل السبب الذي عزف من أمثال هؤلاء الرحالة عن مجاهل الداخل أن أفريقيا لم تكن بغيتهم المباشرة ، وإنما كانت واسطة لغاية ومطلب شهي

(*) رجعنا في هذا المقال أيضاً إلى كتاب « كبار المغامرين والمكتشفين » لمازار أوزيه

أو :

إن نمد عليها يدوه ... بالمجل تقسول له أوه
يبق محل تقسل يا هوه ... وردى يعجب الجانين

أظنه انهاماً لنباهة القارئ بعد هذا ، والوقوف أن أبين له كيف ترمي هذه الأصوات بأصوات الصنوج ، والطبل والسكسفون والنفير ، وغير ذلك من آلات جوقة الجاز ، وأظن أن أغلب القراء سوف يذكرون قصيدة شوقي التي مطلعها :

خف كأسها الحبب ... فهي فضة ذهب

فالبحر يكاد يكون واحداً ، وهو في العربية سريع الحفل قصيرها ، خفيف الحركة لا وقار له إذا قورن بالبحر الطويل مثلاً .

فإذا ذكرنا أن شوقي وصف مرقصه الملكي في وقت لم يكن يُعزف فيه بالجاز ، وأن الرقص الذي رآه كان من نوع الوَلْتز Waltz والبولكا Polka واللانسرز Lancers وغير هذا من الرقص القديم الذي يمتاز برشاقة الحركة وعذوبة الموسيقى ، والاتئاد والوقار ، أفلا يرى القارئ معي أن البحر المذكور هنا أليق برقص الزنج وموسيقى الجاز منه بموسيقى ورقص كلاسيكي ؟

مصطفى مشرفة

هو الهند. فأفريقيا كانت عقبة في طريقهم، فهم يطوفون من حول هذه العقبة في عجلة، سعياً وراء الذهب والحجارة الكريمة والتوابل الهندية الغالية الثمن. ولم يقفوا بشواطئ أفريقيا إلا ليسدوا حاجة ملحة إلى الزاد، فما صادفوه إبان ذلك لم يكف لاستهوائهم إلى الداخل. وما دامت أغراض التجارة والثروة والسعي وراء الفرص هي بواعث سعيهم، فقلب أفريقيا لم يكن ليخلق بتقدم أحد، ولون القارة السوداء قد كان من ثم منفراً إلى الرحيل.

لكنه لما خفت حدة السعي وراء الذهب، وأشبعت كنوز الهند بالغ النهم، ولما هبطت التصورات إلى مستوى المألوف، ولم يعد في سماء الهند مجال للتحليق، أخذت أوربا تلتفت إلى غير آسيا شيئاً فشيئاً. وكانت النهضة وإحياء العلوم وبعث الأخلاق الطيبة والإقدام على ارتياد مجهولها وخفيها، تخرج الناس إلى الكشف تحدوهم بواعث جديدة، وسعوا إلى حب العلم والمعرفة في مناطق الجغرافيا والطبيعة. وربما كان الشرع بعض مثل هذه البواعث ويسجلها لطائفة سابقة من الرحالة، فإن العلم لم يصبح طابع الكشف إلا قبيل القرن التاسع عشر. وقد كان الإنجليز أول من أحسوا ضرورة تنظيم هذه الرحلات العلمية إلى أفريقيا، وأول من أدركوا في ذات الوقت أن مثل هذه الكشوف الجغرافية خليقة أن تخدم مصالحهم الاقتصادية.

أجل كان الإنجليز أول من رصدوا لمثل هذه الأغراض الأموال وأعدوا الرجال، وأول من نظموا لها الرحلات، وأحاطوها بعون الدولة؛ فأسسوا الجمعية الجغرافية بلندن في سنة ١٧٨٨. لكن غير إنجلترا من البلدان ومنها ألمانيا ساهمت في هذه الأغراض بنوع آخر من المعونة، ساهمت بروح المثابرة والإقدام والجلد والمثابرة، فكانت إنجلترا، أو بالحرى الإنجليز يقدمون المال في أغلب الحالات، وكان غير الإنجليز في كثير منها يقدمون النفس. فخرج يوهان لودفيج بوركهارت في خدمتهم، وخرج من قبله فريدريك هورنمان. فكانت حياته دليلاً جديداً على أن استعداد المرء المترفع من الأغراض وانقطاعه إليه، خليقان أن يتغلبا على كل العقبات، وإنما ما بلغ العمر أقصاه عن هذا الغرض بعض الظروف.

كان فريدريك هورنيمان من أسرة قساوسة، وأبوه لوافقه في هيلدسهيم Hildesheim، فوجهه، كما هو الغالب، إلى دراسة اللاهوت، فدرسه في جوتنجن Goettingen، وعين واعظاً كأبيه. وكان هذا يمثل الجو الذي عاش فيه — جو البيت الأول، ومن أثر مقومات الشخصية. لكنه ظهر أن هذه المهنة لم تصادف هوى في نفسه، فكان يزاول إلى جانبها دراسات في تقويم البلدان ويظهر عناية خاصة بما تم في عصره من الكشف في شمال أفريقيا. وكانت الجمعية الأفريقية اللندنية قد أوفدت في ذلك الحين الماجور هوتن Major Houghton في سنة ١٧٩٠ إلى أفريقيا، فقضى دون تأدية رسالته. وخلفه الطبيب الأسكتلندي منجو بارك Mungo Park فوفق في سنة ١٧٩٥ فيما قصر سلفه عنه، وأكد ما أثبته هيرودوت من أن نهر النيجر Niger يجري من الغرب إلى الشرق. وقد تكون قراءة أبحاث منجو بارك هي التي أيقظت في فريدريك هورنمان اقتناعه بأنه لم يخلق إلا لأعمال الكشف. فتقدم إلى الجمعية الأفريقية اللندنية بتوصية تلقى من جلة العلماء، مع الجغرافي المعروف ريتر Ritter، والأستاذ الشهير بلومنباخ Blumenbach. واتصل هورنمان بعد ذلك اتصالات أهلته، وجنى منها أثناء ثمانية أشهر قضاها في لندن أعظم الثمار، فأثبت أنه الرجل الذي لا يجهل كيف يعاشر الناس، وأنه العالم الذي

يعرف في العالم غير فرنسا — عالمه الصغير — وزوده رجاله الأنجليز بالتوصيات، فتوجه إلى باريس في سنة ١٧٩٧، وقدم فيها إلى المعهد الوطني شاباً يرجو علم الشعوب، وعلم تقويم البلدان، على يديه المزيد؛ واتصل في جملة من اتصل بهم بقناصل فرنسا في سواحل أفريقيا الشمالية، وكانوا واسطة تعريفه بتاجر تركي كبير يتجر مع تونس وطرابلس، فأبان له التاجر التركي أن المسلك الوحيد إلى داخل أفريقيا هو من طريق طرابلس وفزان. وقرر هورنمان أن يكون خروجه إلى رحلته من القاهرة، ليقصد منها إلى فزان في طريقه إلى داخل أفريقيا. وزوده التاجر التركي بكتاب توصية كتبه بالعربية إلى تاجر في القاهرة، وقدمه إليه على أنه تاجر إنجليزي شاب.

وبلغ الاسكندرية وأراد الطواف حولها مستطلعاً، فحالت دون ذلك ظروف اضطرته إلى التعجيل بالرحيل. ووصل إلى القاهرة من طريق النيل، ومضى بها عشرة أشهر لم يتكلف في خلالها من القيام بجولات حول القاهرة والاستعداد للسفر. وقد كان جلياً بأنه من أشق الأمور على أوربي مسيحي أن يجوس خلال بلد إسلامي وهو معروف الشخصية، فقد كان خليقاً في ذلك الزمن أن يلقى في بعض خطواته حتفه، أو يتعرض على الأقل لعواقب الغيرة الدينية. فقرر من ثم أن يتزيا بزي المسلمين، وأن ينضم إلى قافلة من الوطنيين. وهو في القاهرة يمكن أن يشرع في ذلك، في حين يسهل افتضاحه في غير القاهرة. وكانت قوافل الحجاج تأتي من فزان وتعود إليها من مكة المكرمة، وكانت تنضم إليها في طريق العودة قافلة من التجار، تقصد إلى مُرزق. واتصل هورنمان بهؤلاء التجار وانتظر عودة الحجاج من الأراضي المقدسة.

وجدَّ ما لم يكن في الحسبان؛ ذلك أنه في الوقت الذي اعتزم فيه هورنمان الخروج في رحلته دخل الفرنسيون البلاد بقيادة بونابرت، فوجست نفس هورنمان الهواجس، وساورته المخاوف مما كان بين فرنسا وانكلترة من عداء، وهو إنما يخرج في خدمة الانجليز ومن وفادتهم؛ لكن حظه لقي نقيض ما كان يتوقع، ووجد في نابليون رجلا تام الادراك لقيمة بعثته وأهميتها العلمية، فلم يبخل عليه بالجوازات اللازمة، بل إنه عرض عليه مالاً فأبى، لكنه تقبل شاكراً معروفاً أولاه إياه، إذ أخذ بونابرت على عاتقه إيصال كتاب من الرحالة الألماني إلى الجمعية الأفريقية اللندنية عن طريق فرنسا ضمن أبحاثه. وقد بلغ الكتاب مصيره، وعلم منه أن هورنمان لم يكن يجهل ما يتعرض له من أخطار، وكان في جانبها جهله باللغة العربية؛ لكنه كان يأمل أن يظل أمره خافياً على الأقل على أولئك الحجاج الذين يعرفون غير واحد من المسلمين من غير الناطقين بالضاد. وقد تغلب على صعوبة التفاهم مع رفاقه في السفر باتخاذ ترجماناً اسمه يوسف فروندنبورج Joseph Frendenburg تابعاً له، وكان قد أقام في البلاد التي عشرة سنة، واعتنق الاسلام، وتضلع من العربية والتركية. وحمل هورنمان معه من الأدوات الفلكية ما يستعين به على تحرياته الجغرافية غير ما عجز اكتشافها، فهي نضاعة، ومن السهل إقناع المشتبهين بأنها كذلك.

وجاء يوم الرحيل بعد استعداد مضن، وبعد التغلب على كل العقبات، فاعتزم السير في طريق للقوافل من قديم الزمان لم تطأه قدم أوربي قبله، متجهاً نحو الغرب صوب مُرزق داخل فزان. وكانت الشقة تمتد من القارة مارة بأم صغير وسيوه، وأجلا مخترقة جبال الهروج إلى مرزق. وليس من شأن هذا المقال أن يتناول الأبحاث الجغرافية بالوصف أو التقدير، فإنما تنصب عنايتنا على أشخاص المكتشفين لاظهار جوانب تطورهم، وكيانهم كبشر من بني الانسان. ومن ثم كان اجتزاؤنا بالمواضيع التي تظهر شخصية هورنمان ومواستها لمشروعه الجرئ.

وفى مفكرة سفره على ما يُذكِّر مواضع زاخرة بقوة الملاحظة الحية المتعددة الجوانب .

كانت المصاعب التى كتب على هورنيمان تذليلها جمة عسيرة ، فمن تعرض للسطو ولأخطار السلاح فى تلك الأصقاع ولجهد الركوب — ركوب الجمال ، ولنقص الزاد والحرمان . هذه كلها قد شاطره رفاقه فى السفر إياها ، لكن وقعها على أوربى لم يألفها أمر لا يخفى على أحد .

قال : « لم أر فى السفر متاعب تذكر ، بل إن هذا السفر كان بالنسبة لى جديداً ، أنا الذى لم أسافر فى قافلة قط . لكنه كم كانت دهشتى أول الأمر حين رأيت عند الظهر بعض سراة التجار وأثرياءهم يقضمون فى خبز جاف ويمضغ بصلات ، وحين سمعت أنهم لا يحطون الرحال بالنهار ، ولا يستوقفون الجمال إلا فى الحاجة القصوى ، فلم يكن لى بد بعد هذا من أن أسأل بعض العرب ممن يجاورونى فى الركوب أن أشاطرهم أكلهم » .

واعتاد هورنيمان ، وهو إذ ذاك حديث فى السادسة والعشرين من عمره ، أكل القافلة ومشربها ، ولم يكن فى كليهما ما يعز عليه اغتياده ورياضة النفس عليه . والماء فى الصحراء ، مع ندرة الواحات وطول ما بين إحداها والأخرى من سفر يستغرق عدة أيام ، عزيز .

ولعل من الممتع أن نستمع إلى هورنيمان وهو يفاضل بين القرب ويفضل النوع السودانى : « ففيه يبقى الماء خمسة أيام صالحاً للشرب من دون أن يتغير طعمه ، على حين يتغير مذاقه فى غير النوع السودانى فى اليوم التالى وتفوح منه رائحة الجلد . ولكى تلين جلود القرب ولا يلم بها بِلًى سريع ، تدهن الحين بعد الحين بالزبد الذائب . ويدهنها أجلاف العرب بالزيت فيظل الماء من جراء ذلك فى الغالب كريه الطعم ، ردىء المذاق » .

ويتعذر على القافلة أحياناً إعداد الطعام ولا يتسع وقتها أو ظروفها له ، فيلجأ المسافرون إلى نوع معين منه ، إلى دقيق الشعير الذى يحملون دائماً حاجتهم منه ، ويعدونه إعداداً خاصاً ، إذ يبلون الشعير حتى يفور ثم يجففونه فى الشمس ، ثم « يحمصونه » فى قدر فوق النار ، ثم يطحنونه . فإذا فعلوا أضافوا إلى دقيقه ملحاً وفلفلا وكموناً وغير ذلك من التوابل ، وحفظوه فى قرب . فإذا أرادوا استعماله خلطوه بالماء ، وأعدوا منه عجينة كثيفة وألانوها بالزبد أو الزيت وتناولوها . فإذا شاءوا منه صنفاً آخر زادوا ماءه وأكلوا معه البلح . وقد يستعاض من الشعير المهيأ على هذه الصورة بالدقيق العادى ، فيخلط بقليل من الماء البارد ويصب عليه بعض الأدم . ويقول هورنيمان إنه كان يقضى أياماً على هذا الطعام ، « وإن البصل والملح والفلفل « الأرنؤوطى » الأحمر هو كل ما يعرفه المسافر فى تلك الأصقاع . لكن هناك بضاعة تحل أحياناً محل هذا كله : الجوع ، فإنه خليق بعد سفر مضن طويل أن يحمل من أبطأ الأطعمة ألذ الوجبات » .

(يتبع)

محمود الدسوقى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين

—

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن ستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى البلاد الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى البلاد الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد [illegible]

من الأدب الإغريقي :

٢ - أزهار من أكاليل إغريقية *

ترجمة الأستاذ محمد محمود السلاموني المعيد بكلية الآداب

يدين «ميلياجر» بشهرته إلى أشعاره في الحب، وهذه تبلغ أربعة أخماس ما كتبه تقريباً. والحق أنه قد برع في هذا النحو من الشعر ويقول «سانت بيف» إن شعر ميلياجر كثيراً ما يذكره بأغنيات «بترارك». أما مناجاة هذا الشاعر الرقيقة لحبيبتيه «زينوفيلا» و «هيليودورا» فستذكر أبداً ما بقي المحبون على وجه الأرض.

ليس من الميسور أن أحدثكم عن قصة حب ميلياجر إلا حديثاً عاماً، وكل ما أراده هو قراءة تراجم لأشعار مختارة لهذا الشاعر الأسيوي المولد. لقد جره خياله المتقد [illegible] وعبرة إلى المجاز والكناية التي ترجع [illegible] في عهد الشكلا الزيات من بعده [illegible]. فلنأخذ لذلك مثلاً «شكوى محب» (الحب عنيف! مروع! ولكن ماذا أفيده من قولي: الحب مروع، أردده المرة بعد المرة في تنهدات لا عداد لها! فالولد[2] يضحك من شكواي ويسر لأن يلام على الدوام، وإذا ما المتنه وجهت له السباب ألواناً فإنه يطمع في المزيد. إني ما أعجب

أيتها «كوبريس Cypris»[1] كيف تنشئين من المياه الغادرة وتلدين ناراً حامية»

إله الحب «أيروس» مزود «بسهام تلفظ اللهب»، ولكن ميلياجر كان الوحيد الذي سلحه بثلاث أقواس واختار له أمين «البيد» و «مهاة المياه»، وهذان النعتان اللذان خلعهما هومر على «آريس Ares» إله الحرب في أشعاره. لقد خلع عليه نعتاً آخر لا يسلم من دعوة [illegible] فهو عنده «صاحب الغناء الدقيق»، وعبر عن طبيعة هذا الإله الصغير الغادرة بكل هذه النعوت «خداع النوم» [illegible] مروع» ولم ينس له بغيه وتسلطه فقال يحمي روحه وقد وقعت في فخ هذا الإله في حين غرة: (لقد وقعت في الشرك وأحكم الإله نفسه وثاقك، وقيد جناحيك. لقد ألقاك في السعير وذر عليك في غشيتك بخوراً، وسقاك دمعاً حاراً تطفئين به غليلك). لقد خاطب «ميلياجر» إله الحب بصيغة الجمع، فقال متبرماً من آلهة الحب وقد اتخذوا من صدره مقراً يقيمون فيه: (هل لك أن تمرحي أيتها الآلهة ذوات الأجنحة بين جوانحي، ولكن في غير شدة أو عنف) ولم ير ميلياجر في إله الحب سبباً من أسباب اللهو والبهجة، فهو يعتبره قوة عتية عاتية خليقة بالتعبير والتقريع (طالما رقص بقدميك، أيها الطفل المشؤوم، فقد أحنيت لك رأسي، إني أعرفك وأقسم بالآلهة أني سأحتمل عنفك وجورك، صوب سهامك

* محاضرة ألقاها الأستاذ W. G. Waddell أستاذ الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في جماعة الدراسات اللاتينية واليونانية.

(٢) «إيروس» إله الحب عند الإغريقيين، هو ولد «أفروديت» «إلهة الحب والجمال». وقد صور الأدباء والفنانون هذا الإله صبياً شقياً لا يخلو من روعة وجمال. فهو طفل رضيع جميل له جناحان ذهبيان يطير بهما كالعصفور، ومزود بالسهام النارية يحملها على ظهره في جعبة الذهبية. وهو في عرفهم الطفل اللاهي العابث الذي لم ينج البشر حتى ولا الآلهة من غدره ومكره، فهو يصوب سهامه في غير عدل إلى القلوب فيصيبها، فلا أصابها صرعى الغرام والهيام والجوى والشجن.

(١) اسم آخر «لأفروديت» «إلهة الحب والجمال» التي كانت تعبد في جزيرة قبرص، وتقول الأسطورة القديمة إن «كوبريس» قد نشأت من ماء البحر.

اللفحة ناراً إلى قلبي ، فلن تنال منه موضعاً بعد أن غدا رماداً كله) . لم يكن إله الحب في نظر ميلياجر بالقوة الخفية فحسب ، بل هو طفل يلعب النرد ، ويعبث بأرواح البشر عبثه بقطع النرد (لقد عبث إله الحب بروحي وأفناها ، بينما كان يلهو في الصباح الباكر بنرده ، وهو بعد الطفل اليافع الذي يترعرع في حجر أمه)

من أروع نفحات « ميلياجر » هذه القصيدة التي يناجي بها حبيبته « زينوفيلا » والتي صور بها معبودته كزهرة ، وشاء حبه أن يفضلها على أزهار الروض كله (اليوم يتفتح البنفسج الأبيض ، والنرجس رفيف الغيث ، والزنبق نزيل الربوات ، واليوم تنبع وتزدهر بين أزهار الروض « زينوفيلا » بهجة الحب ووردة السحر الحلوة ، والملكة التريبة على عرش زهور الربيع . أتفرح أيتها الرياض ؟ ولم هذا السرور أيتها الخمائل المغرورة بخضرتك الناضجة وأزهارك الأخاذة ؟ إن صاحبتي [illegible] أزهارك ووردك مهما كان حالها [illegible]

يلمع حب ميلياجر لزينوفيلا في [illegible] يبحث فيها شاعرنا عن « إله الحب » [illegible] الأمر إلى حيث يجهل ميلياجر مكانه (صيحوا أيها القوم فقد شرد « إله الحب » وهرب الوحش المخيف . لقد ترك مضجعه في الفجر الباكر وأطلق العنان لجناحيه — لقد[1] عرف بدمعه الحلو وثرثرته وسرعته ووقاحته ، ولقد عرف كذلك بضحكاته الخبيثة وجناحيه ، وبجعبة سهامه المشدودة إلى ظهره . من يكون والده وما اسمه ؟ هذا ما لا أستطيع الإدلاء به . فلا السماء ولا الأرض ولا البحر تعترف لهذا العابث بنسب ، فهو مكروه أينما حل ، يتعرض لك نفوس البشر أينما حل . إياكم وهذا الماكر حتى لا يوقع في أشراكه قلوبكم . . . ولكن هل لكم أن تنتظروا قليلاً ، فلم يذهب الوغد بعيداً ، فهو قريب من وكره . آه منك أيها الصغير ، يا صاحب القوس والسهم ، لقد أمكنت أمرك فاختفيت عن ناظري واختبأت بعيني (زينوفيلا) ، ولكن سرعان ما تتغير حالة الشاعر النفسية ، فلا يعود يبحث في إلحاح عن « إله الحب » وإنما رغب كل الرغبة في التخلص منه . وهكذا نراه في الأبيات الآتية يشهر مزاده (بيع هذا الصغير وإن لم يزل نائماً في حجر أمه ، بيع بغير مبالاة ، أي شيء يضطرني لتنشئة هذا المارد الصغير . هو خبيث كل الخبث ، ذو جناحين دقيقين وأظافر يدملها في فريسته في استهتار ، ويمزج بين صراخه وابتسامه ، وأكثر من ذلك ، إنه ليستحيل على الرضيع أن يرضعه . هو ثرثار ذو عيون حادة ، هو الوحش الضاري الذي لم تستطع أمه القبرصية[1] تذليله . فهذا كله سيباع اليوم ، فإذا كان هناك من يزمع الرحيل خارج البلاد ويبغي شراء طفل فليتقدم . . . ولكن ما هذا ؟ انظروا إليه ! إنه يتضرع وقد أجهش بالبكاء . حسناً ! لن أبيعك إذاً ، [illegible] . ستبقى هنا في صحبة معبودتي زينوفيلا) . [illegible] القصيدتين الأخيرتين يتشبث الشاعر بحب زينوفيلا . ولقد كان من أثر هذا التشبث هذا الانفعال النفساني الذي لا يخلو من فكاهة تثير الدهشة والضحك .

لقد ناجى الشاعر معشوقة أخرى حل لها في قلبه أخلص الحب وأصدق الود . هذه المعشوقة هي « هيليودورا » (لقد نقش إله الحب في قلبي بيديه صورة « هيليودورا » ذات الحديث المعسول . هي روح الحياة واللذة) . فلمع شعر شاعرنا القوي بالزهور في هذه القطعة التي يعد فيها باقة من الزهر المختار يحلي بها جبين معبودته الوضاء (سأنظم البنفسجات البيضاء ، والنرجس الغض والريحان ، سأنسق الزنبقات الضاحكة ، والزعفران الحلو ، والورد صديق العاشق . سأنظم هذه الأزهار إكليلاً يتحلى به جبين

(١) الشاعر هنا كأنما هو « منادي المدينة » يعلن أوصاف إله الحب الشارد عن الناس في صورة [illegible] .

(١) الإلهة « أفروديت » (إلهة الحب والجمال) .

«هيليودورا» ذات الضفائر الطيبة الشذى ، كما تنثر الزهر على شعرها الجميل). فميلياجر مثل شغف «كاتولوس»[1] بكل جميل فهو يحب النرجس، ربيب الغيث ، والابتسامات الضاحكة التي تجوب الروابي كعرائس البحر فرادى وجماعات.

لقد رأينا بعض هذه الصور الكثيرة والنعوت الغريبة والصفات الخيالية التي ظهر فيها إله الحب وأسندت إليه في شعر ميلياجر . وها هو ذا إله الحب يظهر في أشعار أخرى وأشكال مختلفة ، فهو الشبح الذي يصاحب العاشق الموله ، فيقود له سفينته متخبطاً في الليالي المطيرة العاصفة (إله الحب يقود الروح ، السفينة ذات الأجنحة التي تمخر عباب محيط الرغبة المفعم بالخاطر) وهو الطبيب الشاق الذي تلتئم على يديه الجراح التي سببتها سهامه المنبعثة من يديه . في القطعة التالية التي ركب فيها الشاعر متن المجاز الغريب نرى إله الحب وقد أخذ صورة لاعب كرة : أتخذ من القلب كرة يلعب بها (هذا الحب الذي يسكن في مشغوف بلعب الكرة ، وقد دفع إليك يا «هيليودورا» [illegible] في صدري ويرتجف . ولكن تعالي [illegible] لأنك إن رميت قلبي بعيداً عنك فسوف لا تحتمل هذا التحدي الصارخ الذي لا يتفق وأدب اللعب).

يظهر تردد الشاعر جلياً في هذه القطعة التي تتنازع فيها قلبه عاطفتان متباينتان : عاطفة الكراهية وعاطفة الحب ، فهو يرسل خادمه «دوركاس» إلى معشوقته ليبلغها رسالة منه (بلغها رسالتي يا «دوركاس» . أخبرها بكل ما أمليته عليك ولا تنقص منه شيئاً ، أعد الخبر على مسامعها مرتين ، وثلاث مرات . والآن ! فلتسرع إليها فلم يعد هناك ما أقوله لك بعد هذا . هيا أسرع ! لحظة قصيرة يا «دوركاس» . لم هذه العجلة ولم أنته بعد من حديثي معك ؟ أضف إلى ما قلته لك من قبل . . . أو لا تضف شيئاً بالمرة . أقول لك أن تخبرها بكل شيء . هيا لا تتردد ولا تقصر في إبلاغ رسالتك كاملة . . . ولكن لمَ أرسلك إليها يا «دوركاس» ؟ ألا ترى أني ذاهب معك ؟ بل سأسبقك إليها ؟) . نلمح في ثنايا القطعة التالية نفسية الشاعر التي لا تستقر على حال واحدة ، ونلمس انفعاله الفجائي وجموح خياله خير رهان وأنفه (لقد سُرِقتُ ، من يكون هذا الوحش الذي سولت له نفسه فاقتراف مثل هذه الجريمة الشنيعة ؟ من يكون هذا الكافر الذي جَسُرَ على نزال «إله الحب» الذي لا يقهر ؟ أسرع وأشعل المشاعل ! ولكن ماذا أسمع ؟ خطوات «هيليودورا» بعينها . تعال إذاً يا قلبي ، وادخل إلى صدري) .

لقد اختطفت يد المنون «هيليودورا» فكان هذا نهاية جموح شاعرنا ، فتحرر أسلوبه من المجاز والكناية ، وخلص من الترصيع والمبالغة . لقد بكى الشاعر الثائر حبيبته الراحلة ورثاها بهذه المرثية التي يعرفها قراء قصة «كليوباترة» التي وضعها «Rider Haggard» وهم يعرفون كيف أنه شاء أن يرسل على لسان خادمة الملكة مرثية هذا الشاعر [illegible] منشداً لها وهي على فراش الموت ؛ وهم يعرفون كيف أن كليوباترة قد تأثرت بها فمالت [illegible] ورغبت في أن تُرَجِّعَ الخادمة إنشادها مرة ثانية بعد أن تسلم الروح : (دموعي ، قربان الحب الضائع ، أرسلها إليك يا «هيليودورا» في مرقدك الأخير . دموعي الحارة أزجيها مدراراً على قبرك ، مذكى الحسرة والدمع السخين ، ذكرى الحب والحنين . إن ميلياجر أحرى الناس بالرثاء ، لينتحب عليك ، وما زلت العزيزة عليه في موتك . . . . . واحسرتاه ! أين محبوبتي الجميلة ؟ أين بغية القلب ؟ لقد امتدت إليها يد المنون فأخذتها ، فأصبحت — وهي الزهرة اليانعة المكتملة — رهينة الثرى . أتوسل إليك ، أيتها الأرض ، أي الرؤوم وأم البشرية ، أن تضمي في حنان ووداعة إلى صدرك هذه الوديعة التي يبكيها الناس أجمعون) . وهكذا نودع ميلياجر الشاعر الموهوب الذي جمع بين عمق الشرق وطرافته ، وصفاء الإغريق ورقتهم .

محمد محمود السموحى

(1) شاعر غنائي روماني ولد عام ٨٤ قبل الميلاد .

حول الأجرام السماوية

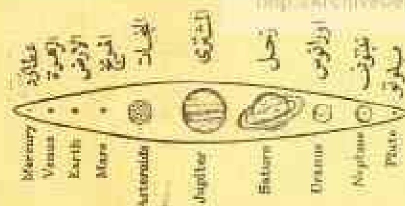
أمثلة توضح أحجامها وأبعادها

منذ اختراع المنظار الفلكي ، واستمرار التقدم في صناعته والزيادة في قوته ازدادت معرفتنا بالعالم الذي نعيش فيه والكون الذي يحيط بنا ، دقة ووضوحاً ، حتى أصبح في مقدور العلماء اليوم أن يصوروا السماء وما فيها ، وصاروا لا يتحدثون عن السيارات وأقدارها وأبعادها فحسب ، بل أيضاً عن النجوم والسدائم وكثافتها ، والعناصر التي تتركب منها ، ونسبة كل منها في بناء النجم أو السديم ، وذلك كله بناء على قوانين معروفة ومشاهدات تتكرر كل يوم في مراصد العالم .

ولا نريد أن نعيد هنا على القارئ ما يراه مفصلا تفصيلا شائقاً في الكتب الفلكية ، ولا في السماء ، وإنما نريد أن نذكر بعض الأمثلة العملية التي لجأ إليها علماء الفلك في تقريب تلك المسائل إلى أذهان القراء ، وذلك لأن الأرقام التي يعبرون بها عما يرد في تلك المباحث من الأبعاد مثلا — تلك الأرقام هي من الضخم بحيث يقصر من إدراكها على حقيقتها العقل ، ويعجز عن تصورها الفكر . ومن ثم كان لا بد من توضيحها وإظهار دلالتها بقوة بواسطة تلك الأمثلة التي سنورد طرفاً منها هنا :

فشكل (١) يمثل الشمس في أعلاه والسيارات في أسفله مرسومة بمقياس واحد . وقد رتبت السيارات تبعاً لبعدها عن الشمس ، ومن الصورة يتبين كيف تزداد أقدار تلك السيارات حتى المشترى ، ثم تتناقص . ولم يحاول واضع الرسم أن يمثل المسافات كما مثل الأقدار بمقياس رسم واحد ، ولو أنه حاول ذلك لوجب عليه أن يمثل الأرض على بعد نحو عشرة أمتار من الشمس ، بينما يكون بعد بلوتو عنها نحو ٤٠٠ متر .





(شكل ١)

وفي الجزء العلوي من هذا الشكل نفسه قد وضح معنى آخر ، هو نسبة قدر الشمس إلى قدر الأرض ؛ فالمعلوم أن قطر الشمس يساوي قطر الأرض مائة مرة وتسع مرات ، ومن ثم يكون حجم الشمس قدر حجم الأرض نحو مليون وثلث مليون من المرات . ولما كانت الكرة الكبرى تمثل الشمس ، وكانت كل كرة من الكرات الصغيرة التي

بداخلها تمثل الأرض بنفس النسبة ، فالشكل يوضح لك كيف أن الكرة الكبرى تحتاج لأكثر من مليون من هذه الكرات الصغيرة لكي تملأها .

ويقول سير جيمس جينز[1] إننا لن نستطيع أن نمثل المجموعة الشمسية بعربات تدور حول تمثال مقام في وسط ميدان كبير ، فإن التمثال يكون أكبر كثيراً من أن يمثل الشمس ، والعربات أعظم كثيراً من أن تمثل السيارات .

ولو أردنا أن نجعل ميداناً مثل ميدان لاظوغلي مثلا يتسع لنموذج دقيق للمجموعة الشمسية طبقاً لمقياس رسم صحيح لوجب أن نمثل الشمس بجسم صغير كالعزة أو الحصاة ، ونمثل السيارات ببذور صغيرة وحبات من الرمل وذرات من التراب . ومن تصور هذه الحبات والذرات في الميدان نستطيع أن ندرك دون عناء أن المجموعة الشمسية فضاء واسع لا يكاد يكون فيه شيء ، ونستطيع أن نسمي هذا تبدو السيارات في السماء بذلك الصغر الذي تبدو به .

ومع ذلك فالمجموعة الشمسية منزوية بعيداً عن غيرها بالفضاء الذي حولها . فإذا كانت العزة والحصاة أجساماً أصغر منها تمثل الشمس وسياراتها في ميدان لاظوغلي ، فإن أقرب النجوم إلينا تمثله حينئذ ذرة بالقرب من (شربين) إذا كان الفراغ بين المكانين خالياً لا شيء فيه . وبذلك نرى مقدار انعزال المجموعة الشمسية في الفضاء .

. . .

والآن ننتقل من المجموعة الشمسية (تلك المنحصرة المنعزلة) إلى أقرب النجوم إلينا ، فنجد أن بعده عنا قدر بعد الشمس نحو ٢٧٠٫٠٠٠ مرة ، أي نحو ٢٥ مليون مليون ميل ؛ ومن هذا يتبين أن الوحدات المألوفة ، وهي الكيلومتر والميل تقصر عن إعطائنا فكرة من تلك الأبعاد الهائلة ؛ ولذلك اتخذت للتعبير عن الأبعاد الفلكية وحدات من نوع آخر :

(١) راجع كتاب « النجوم في مسالكها » الذي طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

لنفرض أن قطاراً سريعاً يقطع ٧٠ ميلا في الساعة (فيقطع المسافة بين القاهرة والاسكندرية في أقل من ساعتين) ، هذا القطار لو سار حول الأرض (كما في شكل ٢) ليلاً ونهاراً من غير توقف ، فإنه يحتاج إلى ستة عشر يوما ليتم دورة كاملة حول الأرض ، وعندئذ يكون قد قطع مسافة تقرب من ٢٥٠٠٠ ميل .



(شكل ٢)

فإذا استمر هذا القطار في دورانه ، وأتم سبع دورات ونصف دورة أو أقل قليلا (كما في شكل ٣) فإنه يكون قد قطع مسافة ١٨٦٠٠٠ ميل ، وعندئذ يكون قد مضى



(شكل ٣)

عليه في هذه الرحلة نحو ثلاثة أشهر . وهذه المسافة الهائلة يقطعها الضوء في ثانية واحدة فقط . وقد سميت هذه المسافة (١٨٦٠٠٠ ميل) ثانية ضوئية . واتخذها الفلكيون وحدة لقياس المسافات الفلكية الصغيرة . ثم اشتقوا منها وحدة أخرى للمسافات البعيدة ، وهي السنة الضوئية ، أي المسافة التي يقطعها الضوء في عام كامل ، وتبلغ نحو ٦ ملايين مليون ميل .

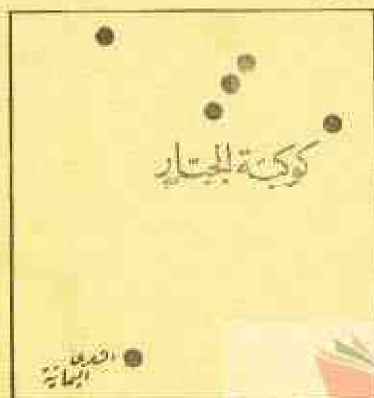
وباستعمال هذه الوحدات يتضح أن المسافة بين الأرض والقمر تزيد على ثانية ضوئية وتقل عن ثانية ونصف ثانية ، والمسافة بين الأرض والشمس قدر هذه المسافة بين الأرض والقمر ٤٠٠ مرة ، أي أن أشعة الشمس تحتاج إلى نحو ثماني دقائق للوصول من مصدرها إلى أعيننا . وأقصى الكواكب وهو بلوتو يبعد عن الأرض نحو خمس ساعات ضوئية ونصف ساعة .

* * *

وإذا تركنا المجموعة الشمسية ووجدنا في الفضاء الذي بعدها ، فإن أسطع نجوم السماء وهو الشعرى اليمانية لا يحتاج الضوء للوصول منه إلى أعيننا إلى ساعات أو أيام أو شهور ، بل إلى تسع سنين كاملة . وهو مع ذلك أقرب النجوم إلينا (شكل ٤)

ونورد هنا للقارئ تقديراً آخر لهذه المسافة الهائلة : نعلم أن أمواج اللاسلكي تسير بسرعة الضوء ، ففي عام ١٩٢٧ نقلت هذه الأمواج إلى العالم أن لندبرج قد عبر المحيط الاطلانطي على متن طائرته ، ومع ذلك لم يصل هذا الخبر إلى الشعرى اليمانية هذه إلا عام ١٩٣٦ أي بعد تسع سنوات من وقوع الحادث .

وإذا أخذنا أقرب نجم في كوكبة الدب الأكبر وجدنا بعده عنا نحو ثمانين سنة ضوئية . أما كوكبة الجبار (وترى في شكل ٤ أيضاً) فلا يصل إلينا الضوء منها في أقل من ٥٠٠ سنة ضوئية ، أي أن الضوء الواصل إلينا منها الآن قد بدأ سيره منها قبل اكتشاف أمريكا بنحو ١٥٠ سنة .



(شكل ٤)
كوكبة الجبار والشعرى اليمانية ، وترى فوق الأفق الشرقي عند الغروب

* * *

ومن أجمل المناظر التي ترى في السماء نهر المجرة أو سكة التبانة ، وهي مجموعة مركبة من ملايين من النجوم ، وليست الشمس إلا قطرة من ذلك البحر الخضم من النجوم المبعثرة التي تبدو متراصة . وبعض مجموعات النجوم في المجرة تبعد عنا نحو ألفي سنة ضوئية ، أي أن الضوء الواصل إلى أعيننا الآن قد ترك هذه النجوم قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

والآن ما هو شكل هذه المجرة ؟ إن وجودنا داخلها يحول دون تصورنا لها كما ينبغي ، ولكن الفلكيين قد استطاعوا أن يكونوا فكرة عن شكلها ، ووصفوها بأنها تشبه عدسة هائلة يبلغ قطرها نحو ١٠٠٫٠٠٠ سنة ضوئية . وهذا العدد الهائل من النجوم في المجرة

رثاء وردة

يا وردة قطفتها كف عاتيـــــة
فرايك غصنها والروض يبكيها
جنت عليك ولم تدر الذى فعلت
وأسرفت وتمـــادت فى تجنيها
قد كنت ناعمة فى الروض هانئة
يغذوك من قطرات الماء هانيها
الحسن فيك تجلى لاهيا طربا
والطيب زادك تقديسا وتنزيها
تسرى النسائم إن جاءت وإن ذهبت
لا يعرف الطيب منها فى مساريها
حتى تمر على واديك عارية   فتكتسى بالطيب [illegible]
والنحل يرقصها الوادى ويخففها   حتى [illegible]
والطل منتثر فى الجو محتجب   من [illegible]
فتحسبين [illegible] كل لؤلؤة
قد موهت بطلاء الحسن تمويهـا
لا الدر يقرب منها فى تفـــاوتها
يوما ولا النجم فى العلياء يحكيها
والبدر يرسل من أنواره رسلا   يهدى إليك تحاياه وتزجيها
والشمس قد قبلت خديك لاثمة
من المحاسن أسرارا تحليهــــا
خجلت خجلة عذراء محجبة   أبدى النسيم محياها لرائيها
قد كنت دنيا تقر الناس لاهية   بها وقد جهلوا أدنى معانيها
حتى دهتك يد لم ترع فيك كما   رعيت أنت على الدنيا وأهليها

* * *

يا وردة كان فى الفردوس مسكنهـا
وأنزلتهـــا الليالى من أعاليها
ذبلت من بعد ما قد كنت ناضرة
وضعت ضيعة من قد جاوز التيها
لا [illegible] إنه دهر يسير بنا   وحالة بعد أحوال نقاسيها
أ[illegible] وقد نقضوا
كل العهود وعابوا من يؤديهـــا

(سبك الشمال)   **شوقى أحمد كيوان**

يسبح جميعه فى الفضاء بسرعة كبيرة خاضع لقوانين ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ومع ذلك فعلى الرغم من هذا العدد العظيم ، ومن تلك السرعات الكبيرة ، فإنه لا خوف من وقوع الاصطدام بين هذه النجوم ، وذلك لأن المسافات التى تفصل بعضها عن بعض هائلة ، حتى لكأنما كل نجم منها يقع وحده فى فراغ تام . وندرك هذه الحقيقة بشكل أوضح إذا تذكرت ما قلناه سابقا من أنه إذا كان أحدها يمثل بذرة فى ميدان لاظوغلى فإن الآخر يمثل بذرة أخرى واقعـة عند الاسكندرية مثلا . ومن ذلك كله يتضح أن احتمال وقوع التصادم بين أى اثنين من هذه النجوم التى فى المجرة يماثل احتمال وقوع التصادم بين قاربين صغيرين قد دفعا فى المحيط : أحدهما من شمال أمريكا ، والآخر من جنوب أفريقيا .

* * *

وليست هذه نهاية القصة ، فقد بلغ الفلكيون إلى أبعد من هذا . فهناك حول المجرة توجد مجموعات من النجوم يبلغ بعدها عنا نحو ١٠٠٫٠٠٠ سنة ضوئية ، ومع ذلك فلا تزال يليهما سحب أخرى من النجوم هى مجرات أخرى ، بعدها عنا يصل إلى نحو مليونين من السنين الضوئية ، وكل مجرة من هذه المجرات بها ملايين الملايين من النجوم ! .

من كتاب «العبير»(*)

تأليف الأستاذ حسين عفيف

— ١ —

على وقع قدميك ، ألحّن أغانيّ . ومحاسنك ، أطلقها نشيد .

يا ماعة التنقل في قلبي آن من وقع خطواتك السحرى ! لولاه ما أوحى إليّ ، ولمّا كان لمزمارى ترانيم .

فيا حبذا الوحي أنتِ ملهمتي ، ويا حبذا الأغنيات أغانيك !

روحي وجيني بالفؤاد ، وانقل الساق عليه ودق بالقدم .

روحي وجيئي به وابسق الأنغام فيه تلافيف . كلما خرجتْ من نأي مع تنفّس الدرق ، أرهفت القوم لى تنغيم .

— ٢ —

ما أنتِ إلا زهرة مرموقة ، وإنما النحلة التي تحتضن رحيقك ، وطير مترنحة في الرياض .

فعل شفتيّ منك حلاوة ، وبشدوى طنين نحل .

وهكذا أشرب كأسي من خمرك ، حتى إذا أرسلتُ أنغامي سكرى ، طرق على نغماتها الناس .

— ٣ —

في الصباح ، حملتُ سلالي الخالية ، وقصدت إلى روضك .

وطفقتُ حتى انصرم النهار ، أجمع من خدك الموّرّد ، والكراز من ثغرك .

وعندما عدتُ أدراجي وسلالي مفعمة ، أفرغتها بجانب قلبي ورحت في نوم لذيذ ، كطفل احتضن دميته ونام .

— ٤ —

حان السفر ، ودق ناقوس الفراق ، فإذا ما غمس اليوم فانت ، لن نعود نلتقي .

فيا طير صدّح ، ويا زهور اذبلي ! وقف يا نسيم ، ويا روض أغلق أبوابك ، فلن يعود يطأ حواشيك الحبيب .

وانزو يا قلب والزم ركنك ، واقتح لك فيه طاقة وأطلّ منها على ما فيك ، وارقب في ضمير الزمان خيال نجمك .

وقل ترى يا زمان نعود ويا نجم ترجع أفقك ؟ وتنير لى ليل البهيم كما نورت عندك ؟

— ٥ —

لا أغنية جميلة لا يشيع منها الأسى ، الذي يقبع في نفوسنا من غير عمومة .

لا زهرة لا يقطر منها الندى ، ولا سرور لا يعمّ في نفسه بقيمة يذرفها في صمت .

لا نهاية لا بد من الألم . الوجود نفسه كان ألماً كبيراً منذ البداية الخليقة . لأنه انفصال أليم للكون من الروح السرمد .

فإلى أن يلتئم الجرح ، ستظل الدنيا تقطر مرارتها الخالدة في كل كأس تشربها ، حتى لو كانت من سلسبيل .

(*) تصدر حديثاً بمكتبة النهضة .

أنباء وآراء

سؤالان

١ — ما هو رأيك في نظام صالح للعالم بعد الحرب الحاضرة، بشرط ألا تغتصب حقوق أي أمة كانت، مع العلم أن الحوادث قد برهنت على فساد الأنظمة الحالية.

٢ — ما هي الشروط التي يجب أن تتوافر في عصبة الأمم لتكون ذات الكلمة النافذة في تقرير مصير العالم؟ وهل في الإمكان تشكيل عصبة أمم مرهوبة الجانب؟

سامي داود سلطون

(الثقافة) تناول موضوع تنظيم العالم تنظيماً جديداً أكثر من كاتب ومفكر. فهناك «ه. ج. ولز» الذي اقترح إعادة تنظيم العالم على أساس جديد يتمشى مع تطور الأخلاق تبعاً لتطور الحضارة، وهو النظام الذي أسماه Re-Orientation of the World؛ وقد كرر ولز مقترحاته لتنظيم العالم الجديد في كتابيه الأخيرين(١). وقد نشرت الثقافة في عامها الماضي تلخيصاً لكل من الكتابين في هذا الباب، كما نشرت عرضاً لكتاب آخر في نفس الموضوع لرئيس تحريرها، وهو كتاب «الاتحاد الآن» لكلارنس سترايت(٢).

وغير هذين الكتابين تعرض الكثيرون لذلك الموضوع؛ وفي الواقع لا يعدو ما يكتب أن يكون آراء تبسط، فيها الصالح وغير الصالح، وإنه لمن المغالاة أن يحكم بفساد الأنظمة الحالية دفعة واحدة، فقد يكون الفساد راجعاً إلى سوء تطبيق هذه الأنظمة، أو التقصير في تطبيقها، أو الانحراف فيه.

أما الجواب عن السؤال الثاني للقارئ الفاضل، فإن أهم شرط يجب توافره في عصبة الأمم لتكون لها الكلمة النافذة، إنما هو تضافر جميع أعضائها وتوافر جهودهم وحسن نيتهم لإنجاح مهمتها. ولا نحسب أن هناك سبباً لما منيت به من فشل في أداء رسالتها غير عدم إخلاص بعض أعضائها، وضعف إيمانهم بها، مما عرقل أعمالها وشل نشاطها.

ولا يمنع ذلك من أن نفتح للقراء باب الإدلاء بآرائهم في سؤال القارئ الفاضل.

حول تبرج المرأة

قرأت في هذه الأيام في «الثقافة» مقالات عن تبرج المرأة وخلاعتها وانسلاخ الكثيرات من ثوب العفة والرزانة، وبعدهن عن صفات الأنوثة، وعن خروجهن وتوثبهن لما ليس لهن من الوظائف والأعمال، وتطلعهن إلى مزاحمة الرجال حتى في القيام عليهن. فرأيت من كتب من السادة يظهرون أسفهم وحزنهم وانزعاجهم لانحراف المرأة عن الميدان الذي خصتها به طبيعتها.

وأنا — إن جاز لي أن أدلي دلوي في الدلاء — أشارك هؤلاء السادة في أسفهم وحزنهم لمصير المرأة الذي سيفقدها قدسيتها ومكانتها المرموقة.

غير أني أخالف حضرات السادة في توجيه اللوم للمرأة؛ إذ الرجال وحدهم سبب هذا الانحراف؛ ذلك أن من المسلم به — لدى الجنسين — أن الرجل أقوى من المرأة، وأن المرأة مطبوعة أبداً للانضواء تحت لوائه،

---

(١) The Fate of Homo Sapiens By H. G. Wells
New World's Order By H. G. Wells

(٢) Union Now, By Clarence Streit

عشى بقوته ، وتفاخر بسطوته وعزته ؛ فهي هنا كله تحوى نفسية الرجل وتعرف ما يلذه ويرضيه ، فتظهر له بالمظهر الذي يضمن لها امتلاكه . فإذا تبرجت ، وتباذلت الحشمة والوقار ... فإنما سببه الرجل وحده . ومظهر المرأة يعكس لنا نفسية الرجل وما يصبو إليه ، ونظرته إليها ؛ ولو أرادها عفة محتشمة غير عابثة لكانت دون مراده . والرجل إنما يخادع نفسه أو هي سنة القوى مع الضعيف حين يحاول إلقاء التبعة على الجنس اللطيف .

وشيء آخر يخفف ذنب المرأة ؛ ذلك أن الرجل هو المسيطر المتحكم في الخلق ، وهو ربان السفينة في هذه الحياة الزاخرة ، فإن استقامت السفينة ونجت فإن ذلك لحذقه وقدرته ، وإن اضطربت فلإهماله ، وإذاً فتبعة انحراف المجتمع واضطرابه على الرجل ، الرجل القائد القابض على أزمة الأمور . فلينظر قادتنا الأدباء المصلحون ، وليشخصوا الداء بالحق ، فلا تستهويهم عصبية الجنس فيخطئوا العلاج ويتفاقم الداء !!

فالتهذيب (أيها المصلحون) والعفة والتصون للرجال أولاً ، لأنهم بأيديهم مقاليد الأمور (وإن العزم من إصلاح الرجال فإنه من إصلاح النساء أعجز) .

(الحلة — العراق) هاشم محمد الرجب

مفاتح جمع مفتح لا مفتاح

أشكل الأمر على الأستاذ عبد السلام محمد هارون حين راح يجيب على تعقيب الأب أنستاس ماري الكرملي في ملاحظاته على تحقيق كتاب الحيوان للجاحظ في العدد ١٠٤ من مجلة الثقافة فظن أن الكوفيين احتجوا بقول الله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب » على جواز حذف الياء من هذا الجمع على اعتبار أنه جمع مفتاح . والواقع أنه جمع مفتح بالكسر ، وهو الآلة التي يفتح بها ، أو جمع مفتح بفتح الميم وهو المكان ، لا جمع مفتاح . إذ لو كان كذلك لقلبت ألف المفرد ياء فيقال مفاتيح كدنانير ومصابيح ومحاريب ولم تسمعهم قالوا في جمع دينار ومصباح ومحراب دنانر ومصابح ومحارب .

على أنه لا وجه للمقابلة التي عقدها الأستاذ بين حذف الياء المزعوم وبين زيادة النحويين للياء في جمع ما لا مدة في مفرده ، كتوهّم دراهيم وصياريف ، فهناك شيء وهنا شيء ... والله أعلم ؟

مصطفى محمد ابراهيم

كنوز أدبية

من بين كنوز الشعب البريطاني تلك المكاتب العديدة التي يملكها الكثيرون من سراة الإنجليز وعظمائهم . وتحتوي هذه المكاتب لا شك على ما لا يقدر بثمن لما تحويه من مخطوطات ومؤلفات نادرة . ولما كان من أثر الغارات الألمانية على الجزر البريطانية تعرض كثير من المباني الضخمة للتدمير بسبب المفرقعات ، فقد كان يخشى ضياع الكثير من هذه المكاتب .

غير أن الصحف الأمريكية نشرت أخيراً أنباء وصول كثير من المكاتب الخاصة إلى الولايات المتحدة ، وأفردت إحداها مقالاً أحصت فيه هذه المكتبات المهمة التي تم نقلها ، فإذا به يزيد على عشرة مكتبة ، وبعضها يحوي أهم وأندر آثار الأدباء ، ومن هذه الآثار مجموعات رسائل من بينها رسائل كرومول ويوميات الشعراء مثل لونجفلو ورسائل من كيتس وتنيسون وغير ذلك .

وقد ذكرت هذه الصحيفة تفصيلات لما تعرضت له الباخرة التي نقلت ثانية هذه الكنوز الأدبية من مخاطر ، إذ هوجمت مرتين بالطائرات ، كما أوشكت أن تمس الألغام أكثر من مرة ، ولكن نظام القوافل البحرية كفل لها الوصول سالمة إلى الشاطئ الأمريكي .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين - مصر